سَنَد
SANAD

حتمية الصدام

مختار حسن

مُبادَرات طابَة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

ع | ورقة بحثية رقم (١) | مسلسل رقم (٣) ٢٠١٨

حتمية الصدام

عرض لجذور الفكرة ونقدها وبيان كيفية مواجهتها

تأليف

مختار حسن

باحث

الترقيم الدولي : 978-9948-39-465-5

حتمية الصدام

www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق © محفوظة، يمنع إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الإصدار بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من مؤسسة طابة، إلا في حالات الاقتباس المختصر مع العزو الدقيق، والكامل في المقالات النقدية، أو المراجعات.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحابته أجمعين:

وبعد فإن الله قد جعل دين الإسلام دين الرحمة والسلام، وأرسل رسوله ﷺ للعالمين رحمة ولمن آمن به نجاة من النار ، وجاء بمنهج قويم يمثل خاتمة الرسالات وهداية لمن شاء أن يستقيم، ولما كان هذا الدين للرسالات خاتما وللهداية الربانية ناشرا؛ كان من الحكمة أن يحوي هذا التشريع في طياته دعائم الحضارة البشرية، وركائز التقدم الإنساني، فالرحمة الربانية ليست قاصرة على المؤمنين فقط، بل هي كما أخبر القرآن الكريم : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن هنا تجلت في هذا التشريع أسمى معاني التآلف الإنساني وأعمق قواعد الاجتماع البشري، فدعت آيات القرآن الكريم ثم أحاديث النبي ﷺ إلى قواعد العيش المشترك و إلى ما يدعم التقارب والتواصل بين الشعوب، من غير تمييز بينهم بسبب لون أو جنس أو دين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] فجعلت الشريعة مفتاح التآلف والتقارب بين الناس وحدة أصل الجنس البشري؛ ونبههم على حقيقتهم أنهم مخلوقون من قبل الخالق العظيم وأن ذلك يستتبع ضرورة أن يتعرفوا عليه وأن يسيروا وفق منهجه القويم.

لكن اقتضت حكمة الله أن يجعل الإنسان له اختيار وإرادة من أجل صحة التكليف في الدنيا، وعدالة الثواب والعقاب في الآخرة، ومن هنا اختار بعض البشر طريق الضلالة عن وعي وإرادة، وراحوا يعارضون منهج الله القويم ويخرجون عن طريقه المستقيم، فبدلا من تحقيق معاني التقارب والتآلف بين البشر قاموا ببث الكراهية والفرقة بين الناس، ونشروا بين الناس أفكار الصراع والكراهية وعملوا على تطبيق هذه الأفكار

وقد ظهر على مر التاريخ الإنساني أناس يؤمنون بفكرة الصراع والصدام بين البشر، وهذه الأفكار في الحقيقة تتعارض مع ما جاءت به الشرائع من هداية ورحمة ربانية، وفي التاريخ الإسلامي كذلك ظهر فريق من المسلمين يدعون احتكار الحق وحدهم، ويقاتلون بقية المسلمين لمجرد مخالفتهم لهم ،وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة عن هؤلاء أنهم أقوام يأتون من بعده يتكلمون بكلامه ﷺويدعون إلى كتاب الله، يحسنون القول ويسيئون العمل ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**أما إنه ستمرق مارقة يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثم لا يعودون إليه حتى يرجع السهم على فوقه، يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يحسنون القول، ويسيئون الفعل، فمن لقيهم فليقاتلهم، فمن قتلهم فله أفضل الأجر، ومن قتلوه فله أفضل الشهادة، هم شر البرية، بريء الله منهم، يقتلهم أولى الطائفتين بالحق**»[1] جعلوا الصدام سبيلهم والقتل دينهم ؛ ولم يكتفوا بذلك حتى استدلوا على ضلالهم وغيهم بآيات الله وأحاديث المصطفى ﷺ،

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ٢/ ١٦٧ ط.دار الكتب العلمية.

يكذبون على الله ورسولهﷺ، ويدلسون على الجماهير باسم الدين، ويشوهون صورة الدين السمح، ويحولون الدين بأفعالهم الإجرامية إلى صراع وصدام وشقاق؛ وهم يعملون على تقويض روابط المجتمعات باسم الدين والدين منهم براء، قال ﷺ «**إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردئا للإسلام غيره إلى ما شاء الله فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك**»[1]

لذلك من المهم أن تتضافر جهود العقلاء من البشر في مواجهة هذه الأفكار المخالفة للهداية الربانية والقيم الإنسانية.

وكذلك على أهل العلم والدعاة إلى الله أن يبينوا للناس فساد هؤلاء وضلال أفكارهم، وأن يفندوا أطروحاتهم الفاسدة ويزيلوا شُبههم ويكشفوا تمويهاتهم ،صيانةً للدين، وقيامًا بحق الأمانة التي تحملوها عن سيد الخلق ﷺ كما في قوله ﷺ : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**».

إذن وفي ظل خطورة هذه الفكرة وأهمية التصدي لها كان من المهم الوقوف على أصل تلك الفكرة وسبر أغوارها والتعرف على أسبابها ، ثم نمضي بعد ذلك في تحليل وتفكيك هذه الفكرة وبيان تهافتها ومخالفتها لصحيح الشرع الشريف من خلال العناصر

(١) ١/ ٢٨١ ط. مؤسسة الرسالة صحيح ابن حبان كتاب العلم باب ذكر ما كان يتخوف ﷺ على أمته جدال المنافق .

التالية :

- تمهيد

- فكرة حتمية الصدام (التعريف والأشكال والأسباب) ويحتوي على :

أولا معنى الحتمية .

ثانيا معنى الصدام .

- أشكال وصور حتمية الصدام.

- أسباب تبني القول بحتمية الصدام .

الفصل الأول : الجذور والأصول التاريخية والفلسفية لفكرة حتمية الصدام:

- أولا الجذور الأولى لفكرة حتمية الصدام (غواية إبليس والصدام الأول):

- ثانيا تاريخ الفكرة وتطورها عند الحضارات القديمة والأمم السابقة وظهورها عند المسلمين:

- حتمية الصدام عند الإغريق :

- حتمية الصدام عند بني إسرائيل :

- ظهورفكرة حتمية الصدام في الفرق الإسلامية

ثالثا : فكرة حتمية الصدام في الفلسفات الحديثة والمعاصرة:

الفصل الثاني: نماذج لأبرز القائلين بفكرة حتمية الصدام في العصر الحديث

أولا : جماعة الإخوان المسلمين

ثانيا : نماذج أخرىٰ من مروجي فكر حتمية الصدام

ثالثا: حتمية الصدام عند الجماعات المسلحة المعاصرة (القاعدة و داعش نموذجا)

الفصل الثالث: فكرة حتمية الصدام بين بينات نصوص الشرع وأوهام المتطرفين:

أولا أصول الرؤية الإسلامية في علاقة البشر بعضهم ببعض

ثانيا : بعض النماذج لخطأ المتطرفين في فهم النصوص الشرعية للاستدلال علىٰ فكرة حتمية الصدام :

الفصل الرابع كيفية مواجهة فكر حتمية الصدام وعلاج آثاره

١ – نشر الوعي بالقيم الإنسانية والدينية :

٢ – تفكيك الأفكار المتطرفة التي ينطلق منها فكر حتمية الصدام :

٣ – برامج معالجة آثار النزاعات الطائفية والعرقية :

الخاتمة وتحتوي علىٰ نتائج البحث .

تمهيد فكرة حتمية الصدام

(التعريف والأشكال والأسباب)

فكرة حتمية الصدام هي فكرة لها جذور قديمة ولدت مع بداية ظهور البشرية؛ حيث توعد إبليس البشر بالغواية مستثنيا فريقا منهم هم عباد الله المخلصين، وكانت جملة التحذيرات التي تكشف عن مراد إبليس من غوايته للبشر ما حكاه لنا القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة:٩١] ، فحصول العداوة والبغضاء لما كان من جملة أغراض إبليس راح يخاطب نوازع الشر في بني آدم حتى يحقق غايته في إغواء بني آدم وصرفهم عن الصراط المستقيم؛ ومن ثم كانت حتمية الصدام أثرا من آثار خطة إبليس الشيطانية لصرف الناس عن هداية الشرع الشريف وهو ما سنرصد تفاصيله وآثاره وكيفية الوقاية منه من خلال هذا البحث .

ولكن ماذا نقصد بحتمية الصدام ؟

أولاً معنى الحتمية :

الحتمية مصدر صناعي لكلمة الحَتْم ، والحتم في معاجم اللغة يكون بمعنى الأمر الواجب الذي لا مفر منه ، قال في المصباح : " حتم عليه الأمر حتما، من باب ضرب: أوجبه جزما، وانحتم الأمر وتحتم وجب وجوبا لا يمكن إسقاطه "[1]

(١) المصباح المنير للفيومي صـ ١٢٠ ط.دار الكتب العلمية

فالحتمية تعني الضرورة والوجوب ، وبالتالي تفرض فكرة الحتمية سياجا مغلقا على احتمالات العقل واختيارات البشر فيما يخص ما تقترن به، ما يعني أن تبني القول بحتمية شيء ما ينفي ما عداه من احتمال عند من يتبنى ذلك الاعتقاد، ويبقى الأمر متوقفا على قوة الاستدلال على ذلك الوجوب وهذه الضرورة .

حيث تقضي الحتمية على الحلول الوسطى ، وتصير الأمور دائما حالها بين ثنائية إما كذا أو كذا ، وهو ما ترفضه أبسط قوانين العقل وأقل معايشة للواقع أن هناك عادة حلولا عديدة وطرقا متنوعة لا يمكن إقامة الحياة بدون تلك الحلول والطرق ، فالتنوع والاختلاف سنة الحياة التي أقامها الله جل في علاه

وفي الفلسفة وفضاءها تعد الحتمية احد المذاهب الفلسفية التي تذهب إلى أن كل حادثة إيا ما كانت ليست إلا حالة جزئية من حالات ينطبق عليها أحد قوانين الطبيعة التي تتحكم في كل شيء[1]؛ وهو ما قد يدعو للتساؤل من قبل الرافضين للحتمية بهذا المعنى حول دور الإرادة البشرية في ذلك ، فالإنسان يحمل إرادة على أساسها يمكن له الاختيار بين الخير والشر، والحتمية بهذا المعنى تعد قيدا على تلك الحرية التي لولاها لما كان هناك أي داع للمسئولية عن الفعل الإنساني ، فالحرية والمسئولية وجهان لعملة واحدة؛ فلا حرية بل مسئولية ، والعكس صحيح .

(١) نظر الموسوعة الفلسفية المختصرة صـ ١٨١ ط.دار القلم .

ثانيا معنى الصدام :

الصدام مصدر لفعل صدم ومعناه كما في معاجم اللغة : "ضرب شيء صلب بشيء مثله، ورجلان يعدوان فتصادما، وجيشان، مثله، يتصادمان. وصدمهم أمر اي أصابتهم شدة "[1].

فالصدام يسلتزم في اللغة وجود طرفين ليحصل بينهما التصادم.

ولقد حملت الكلمة ظلالا من العنف وحصول النزاع حيث اقترنت الكلمة بالحرب والنزاع في الشعر والأدب العربي كذلك :

يقول بشر بن ابي خازم الأسدي :

إنَّا إذا نَعَرُوا الحُرُوبَ بِنَعْرَةٍ تُشْفَىٰ صُدُورُهُمُ بِرَأْسٍ مُصَدَّمِ [2].

أشكال وصور حتمية الصدام:

وإذا انتقلنا لواقع الفكرة لدراستها بشكل أوسع نجد أن لها أشكالا وصورا مختلفة تتحدد من خلالها هذه الفكرة على مستوى الاجتماع البشري على النحو التالي :

١ – النزاعات العرقية والطائفية :

فالنزاعات الطائفية والعرقية التي تحدث على مستوى المجتمعات والتي يتسبب

(١) العين للخليل بن أحمد ٧/ ١٠٣ ط. دار الهلال.
(٢) انظر جمهرة أشعار العرب أبو زيد القرشي صـ ٤٠١ ط.نهضة مصر

فيها عدم احترام الآخر المختلف في الدين أو المذهب أوالعِرق، مما يمثل أكبر أسباب الصدام البشري الذي نتج عنه قتل ملايين البشر عبر التاريخ، فحرب واحدة شهدتها أوربا في العصر الحديث استمرت من ١٩٩٢ -١٩٩٥ راح ضحيتها فوق المائة الأف من أهل البوسنة الهرسك من المسلمين إثر صراع عرقي وديني قام به الصرب ضد أهل البوسنة ، وفي القرن السابع عشر وفي أوروبا أيضا نشبت حرب بين طائفتي الكاثوليك والبروتستانت المسيحيتين دامت ثلاثين عاما نتج عنها ضحايا يزيدون وفق بعض التقديرات عن ثلاثة ملايين من الأوربيين![1] .

٢ - جرائم الكراهية :

جرائم الكراهية التي تحدث على مستوى الأفراد كلها تحدث بناء على الإيمان بحتمية الصراع والصدام بين البشر وانتفاء التسامح بينهم تكون في شكل القتل على الهوية أو إتلاف الممتلكات أوالكتابات والرسوم المسيئة .

٣ - الاحتلال واستغلال الشعوب وإبادتهم :

بعد حصول الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر مع ظهور الآلة البخارية في إنجلترا ثم في باقي أوربا بدأت تحدث وفرة في الإنتاج ، فاحتاجت أوروبا لفتح أسواق جديدة، واحتيج كذلك لوفرة في المواد الخام؛ فاتجه الأوربيون لغزو البلاد الإفريقية

(١) عمان الأردن ٢٠٠٩ بعنوان تعداد الضحايا انظر في تقدير ضحايا تلك الحروب وغيرها التقرير الصادر عن المركز الملكي للبحوث والدراسات.

والآسيوية التي تبتعد عنهم وتمتلك وفرة من المواد الخام ويمكن أن تكون أسواقا جيدة لمنتجاتهم، ومع حصول الغزو الأوربي الجديد تم احتلال مساحات هائلة من الأراضي فيها الملايين من البشر تمت السيطرة عليهم بالقوة العسكرية التي كانت تمتلكها أوربا آن ذاك، وسيطر على عقل ذلك المحتل فكرة خرافية ملخصها؛ أنه هو مثال التقدم والحضارة الذي يحمل عبء تطهير الأرض من غير أصحاب الحضارة ! فتارة يحاول هؤلاء تطويع هذه الشعوب بإخضاعهم للغتهم وثقافتهم ليكونوا مثلهم حتى يتمكنوا من بيع منتجاتهم لهم ، وإذا فشلوا في هذا التنميط والتحديث[1] المُدَّعى فلا مفر من إبادة هذه الشعوب المتخلفة التي تقف حجر عثر أمام التقدم كما فعلوا مع الهنود الحمر وسكان أمريكا وأستراليا الأصليين!

يقول الأستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري في وصف ما فعله هؤلاء الأوربيون بالشعوب: " الرجل الأبيض الذي يذهب إلى البرية (أرض بلا شعب) ليفتحها ويستقر فيها ولا يحمل سوى مسدسه. وكلنا يعرف المنظر الشهير، حين يقف اثنان من رعاة البقر في لحظة المواجهة التي يفوز فيها من يصل إلى مسدسه "أسرع" من الآخر. إن هذا المنظر الذى انطبع فى مخيلتنا منذ نعومة أظافرنا، يعلمنا كل أسس الداروينية الاجتماعية: أن الصراع من أجل البقاء هو سنة الحياة وأنه لا يكتب البقاء إلا للأصلح، أى الأقوى أو الأسرع أو الأكثر دهاء ومكرا، وهى مجموعة من الصفات التى لا علاقة لها بأية

(١) المقصود من التنميط والتحديث جعل البشر يعيشون وفق النمط أو النوذج الغربي الذي يتبع قوانين الحداثة الغربية ويتسوده ثقافة الاستهلاك .

منظومة قيمية، دينية كانت أم أخلاقية أم إنسانية. وحينما يظهر الهنود الأشرار، هؤلاء «الإرهابيون» أصحاب الأرض الأصليين الذين لا يتركونه وشأنه كى يرعى أبقاره ويبنى مزرعته، أى مستوطنته، على أرضهم وأرض أجدادهم، يحصدهم الكاوبوي برصاصه حصداً "دفاعاً" عن الفتاة البيضاء البريئة وعن حقوقه المطلقة "[1]

إلى هذا الحد من الاستخفاف بكل القيم والأعراف والأخلاق الإنسانية والدينية من الممكن أن تقود إليه فكرة حتمية الصدام بين البشر ، إذا كانت فكرة حتمية الصدام وتجلياتها المختلفة قد قادت البشرية إلى حافة الهاوية بهذا الشكل، فما الذي يفرق بينها وبين بعض الأفعال البشرية والأفكار الإنسانية الأخرى التي يدعي البعض أنه يمارس إجرامه استنادا إليها مثل الدفاع عن النفس أو المقاومة المشروعة أو مثل أحكام الجهاد والقتال في الإسلام ؟

والحقيقة أن حتمية الصدام بحسب ما تم عرضه تختلف اختلافا تاما عن فكرة الدفاع عن النفس أو المقاومة المشروعة وكذلك ما شرع من أحكام الجهاد والقتال في الإسلام؛ إذ كل من الدفاع عن النفس والمقاومة المشروعة والتي هي نفس ما تتبناه الشريعة الإسلامية في أحكام القتال والجهاد فهي عبارة عن حالة مؤقتة توجد عندما تتوفر أسبابها كالاعتداء على الأنفس والأوطان، وقد جاء في محكم التنزيل ما يؤكد بكل وضوح على غاية الجهاد المشروعة في كل الأعراف والقوانين الدولية وهي الدفاع عن

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ١/ ٢٦٩ أ.عبد الوهاب المسيري ط. الشروق

النفس والأوطان والذرية قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] وقال جل شأنه أيضاً: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج ٣٩ - ٤٠].

وبالتالي تذهب تلك الحالة عندما تزول تلك الأسباب المتمثلة في الاعتداء على النفوس والأوطان، لكن مفهوم الحتمية يفترض دواما لحالة الصدام والصراع طالما وجد الاختلاف والتمايز بين البشر! وهو ما يخالف قوانين الاجتماع البشري، ويخالف الرؤية الإسلامية التي تنبني عليها مقاصد خلق الإنسان من العبادة والعمارة وتزكية النفس.

أسباب تبني القول بحتمية الصدام :

هناك أسباب عديدة تقود في النهاية لتبني هذه الفكرة التي اتضح لنا من خلال أشكالها وصورها مدى بشاعتها ومخالفتها للأخلاق والقيم الإنسانية وبالتالي يأتي السؤال ما الذي يجعل الإنسان يخالف تلك الأعراف والقيم ليؤمن بوجود الصراع وحتمية الصدام بين البشر؛ وهو ما يمكن أن يكون واحدا من الأسباب التالية:

١ - عدم قبول الآخر :

أحد أسباب التطرف في الفكر والسلوك هو عدم قبول الآخر فالشخص الذي يعاني

من التطرف لا يقبل إلا فكره ودينه وجنسه، وبالتالي فناتج عدم قبول الآخر هو حتمية الصدام معه فإما أنا أو الآخر ، لأننا لا نكون معًا ، ويفسر البعض ذلك بأنه استمرار لما ورثه الإنسان من حياته البدائية التي مر فيها الإنسان بظروف صعبة جعلته يرتبط بجماعته البدائية كي يستمد منه الأمن ضد أعدائه الخارجيين الذين قد يكونوا قطيعا من الحيوانات البرية أو حتى بشرا آخرين مجهولين بالنسبة له!

إن الخوف من الأجنبي هو خوف من فقدان الهوية في المقام الأول حيث يستغني الفرد عن المجموعة التي يعتبرها دعامة لهويته العاجزة [1]

٢ – احتقار الآخر :

يمثل احتقار الآخر مستوى من الرفض لكنه في جانبه العدواني؛ حيث يرى الشخص نفسه فوق الآخرين وأن الآخر لا يتمتع بنفس قدر الإنسانية الذي نتمتع به وهي رؤية شوفونية متطرفة نتج عنها حروب وإبادة مثلما فعل النازي هتلر ونتج عن أفعاله مقتل ملايين الضحايا حيث كان يؤمن بفكرة تفوق الجنس الألماني وكان يقول : " إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً ". وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية

(١) انظر أعداء الحوار أسباب اللتسامح ومظاهره صـ٣٦٦ مايكل انجلو ياكبوتشي ترجمة : د.عبد الفتاح حسن ط.الهيئة العامة للكتاب

ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها "أرضاً عذراء" و"صحراء مهجورة "[1]

٣ – الأطماع التوسعية والاستعمارية :

من الأسباب المؤدية إلى تبني فكر حتمية الصدام الأطماع التوسعية والاستعمارية ، حيث تتعارض إرادتان؛ إرادة الدول الامبريالية التوسعية التي تريد بسط نفوذها واكتساب مزيد من الأراضي، وإرادة الدولة التي تقاوم وتناضل دون أن تبتلع وتذهب سيادتها من قبل الدولة المستعمرة، وهذا ما ظلت الشعوب العربية والإسلامية تناضل من أجله ضد دول الاحتلال الغربي الغاشم الذي استمر لأكثر من مائة سنة في بعض البلاد وغير من لغتها وثقافتها ،بما قدر فرض صراعا سياسيا ودينيا وثقافيا لم ينته بخروج جيوش تلك الدول المحتلة من الأراضي التي احتلتها، فدائما ما ينشأ مع الاحتلال ثقافة وفكر ضرورة وجود الأمن لحماية المحتل المستعمر من الشعوب المحتلة !

ولعل أوضح مثال لذلك ما فعله الكيان الصهيوني مع العرب وما روج له الكيان الصهيوني مما يعرف بنظرية الأمن الإسرائيلية، التي هي في الحقيقة صورة من صور الهيمنة، وتجلٍ من تجليات الإيمان بالصراع وحتمية الصدام ، فإسرائيل تصور للعالم أنها مستهدفة من قبل العرب وأنها الدولة التي تدافع عن نفسها من اعتداءات العرب البرابرة!

(١) موسوعة اليهود واليهودية ٢/ ٤٠٥

وقد استخدمت إسرائيل نظرية الأمن كوسيلة للتوسع من أجل الوصول إلى "الحدود الآمنة"، ولذلك لا يوجد دستور للدولة ينص على حدود سياسية معينة. وبصفة عامة لم يكن الإسرائيليون، إجمالاً، راضين عن حدود الكيان الصهيوني، كما حددتها اتفاقات الهدنة لسنة ١٩٤٩، وهي الاتفاقات التي جاءت أصلاً لتكرس الأمر الواقع الذي فرضته القوة الصهيونية. ويميِّز موشيه ديان بين "الحدود الدائمة" و"الحدود التي تضمن السلامة" أو "الحدود الآمنة"، فالسلام يعتمد على "نوع الحدود وطبيعتها"، وهو ما يتفق في التمييز الصهيوني بين "خطوط الهدنة وخطوط وقف إطلاق النار من جهة" والحدود "الطبيعية" و"الآمنة" و"التاريخية" من جهة أخرى. فالصهيونية نظرت إلى الأراضي العربية التي تطمع في السيطرة عليها باعتبارها "الأجزاء المحتلة من الوطن القومي اليهودي" أو "الأقسام المتممة لأرض إسرائيل التاريخية"، وما أن استتب الأمر للعدوان وتوطدت أقدام الاحتلال حتى تم الترويج للحديث عن "المناطق المحررة"، والمطالبة بتأمين حدود طبيعية تضمن السلام وتسد الحاجات الاقتصادية[1]

والتوسع والاستيطان الذي تمارسه إسرائيل بشكل متواصل هو مما يؤدي لا محالة للصدام نتيجة لمقاومة الشعوب العربية في سبيل استرداد حقها.

(١) المرجع السابق ٧ / ٢٠٩

الفصل الأول
الجذور والأصول التاريخية والفلسفية لفكرة حتمية الصدام.

تخرج الأفكار غالبا من خلال نسق كلي يطلق عليه البعض اسم " النموذج المعرفي"، والنموذج المعرفي يقصد به كما يقول العلامة أ.د علي جمعة : " الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعد ذلك ، ذلك النموذج الذي يمثل الإطار المرجعي والمعيار المعتمد في عقل المسلم ونفسيته ،وهو المكون الأساسي لشخصية المسلم والضابط لفكره "[1] وهذا النموذج المعرفي له مفردات أساسية فهو يحتوي على إطار العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان ونفسه وبين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والكون ، فالإسلام تقوم رؤيته للكون على أساس وجود خالق خلق هذا الكون وهو يتصف بصفات القدرة والإرادة والحكمة وغيرها، وأن الإنسان عبد لله مكلف بشرع وأنه وجد في هذه الحياة الدنيا من أجل العبادة و عمران الأرض وتزكية النفس، وأن العلاقة بين البشر قوامها التكامل والتوازن و أن هناك سننا قد خلق الله على أساسها الكون وما فيه من كائنات، بالتالي فهذه الرؤية الكلية هي التي ينطلق منها المسلم في سلوكه في هذه الدنيا، وفي المقابل هناك أفكار وفلسفات أخرى تختلف في نموذجها المعرفي عن الرؤية الإسلامية تتبنى عقائد تنكر وجود الإله أو تؤمن بوجوده مع عدم وصفه بصفات الكمال، أو أنها قد تتبنى قيما تختلف عن القيم السائدة في الأديان مثل الفلسفات

(١) وقال الإمام أ.د علي جمعة صـ ٢٠٥ ط.الوابل الصيب

التي تتبنى النفعية أو اللاأخلاقية ، ومن جهة أخرى هناك مذاهب تتبنى فكرة الصراع والصدام وأن البقاء للأقوى والأصلح وكل هذه التيارات والفلسفات هي التي ملأت العالم وعلى إثر انتشارها عانى العالم من حروب وصراعات راح ضحيتها ملايين البشر.

ولذلك فسنحاول في هذا الفصل تتبع جذور هذه الفكرة تاريخيا وكيف تطورت فلسفيا حتى تبنتها جماعات هنا وهناك واستطاعت أن تجعل هذه الفكرة واقعا مؤلما قد ينذر بمستقبل مخيف ينتظر العالم إذا لم تتكاتف دول العالم لمواجهة هذه الأفكار وتجفيف منابعها قبل أن يستشري خطرها .

أولا الجذور الأولى لفكرة حتمية الصدام (غواية إبليس والصدام الأول):

كلنا نعرف قصة خلق آدم عليه السلام وكيف أن الله جل جلاله قد أمر الملائكة بالسجود له إجلالا لصنعة الله ولاختصاصه بالعلم ؛ غير أن إبليس رأى في ذلك السجود إنقاصا لقدره ومكانته التي يظنها في نفسه ، فما كان من الله جل جلاله إلا أن جازى إبليس على رده الأمر على الله أن طرده من رحمته التي لا يستحقها المتكبرون المغرورون، وهنا أعلن إبليس عن البيان الأول لفكرة حتمية الصدام وإعلانه أبدية الصراع بينه وبين بني البشر قائلا : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة ص: الآيات من ٧٩ -٨٣] .

فطلب إبليس البقاء والإمهال ليوم القيامة مع إصراره على غواية بني آدم يكشف

عن جذور فكرة حتمية الصدام ودوام الصراع بين الشيطان وبني آدم، وفي المقابل كان آدم عليه السلام يتلقى من ربه بعد معصيته كلمات التوبة والعهد والميثاق له ولبنيه من بعده؛ فآدم عندما وقعت منه المعصية أسرع إلى الرجوع والإنابة بخلاف إبليس أسرع إلى الاستعلاء والمكابرة؛ ولذلك قال الله له ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة : ٣٨].

فصار هناك طريقان طريق الهداية الربانية ، وطريق الغواية الشيطانية ، وقد بين الله جل جلاله لعباده من البداية أن لا يتبعوا طريق الشيطان، فإن طريقه هو طريق الغضب والبغضاء والكراهية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة : ٩١]

ولذلك راح إبليس يسلك نهجه مع بني آدم حتى نجح في إيقاع العداوة بين الأخوين ووقع أول صدام على الأرض بين أبناء آدم حتى قتل أحدهما الآخر ، ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ۗ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣٠] .

فطاعة بني آدم لغواية إبليس وإعراضهم عن منهج الله، كان بداية لانتقال فكر حتمية الصدام من إبليس إلى البشر .

ثانيا تاريخ الفكرة وتطورها عند الحضارات القديمة والأمم السابقة وظهورها عند المسلمين:

لا يختلف البشر عن بعضهم البعض في الصفات ؛ خاصة في الميل للخير والشر فكل إنسان عدا الأنبياء والرسل المعصومين -عليهم الصلاة والسلام - لديه من نوازع الخير والشر ما يتحدد سلوكه على اختيار أحدهما، قال تعالى:﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:١٠] قال الإمام الرازي " قال أهل العربية: النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر " (١)

ولأجل ذلك جاءت الشرائع بعضها إثر بعض من أجل رد البشرية إلى ساحة الهداية الربانية مرة أخرى، وخلال مسيرة الحضارة البشرية حصلت نزاعات وصراعات فيما بينهم لكن لعل ما يهمنا هو ظهور أثر فكرة حتمية الصدام وضرورة الصراع في هذه النزاعات وليس بالضرورة أن تكون الفكرة سمة أساسية من سمات هذه الحضارات لكنها على كل حال كانت سببا في وقوع النزاع ومن ثم الصدام والضعف في تلك الحضارة أو تلك الأمة ؛ مما يؤثر على مسيرة الحضارة الإنسانية.

(١) ط.إحياء التراث العربي تفسير مفاتيح الغيب ٣١ / ١٦٧

- حتمية الصدام عند الإغريق :

تعد الحضارة الإغريقية أحد حلقات الحضارة الإنسانية فهي تحمل بلا ريب قدرا هائلا من المعرفة الإنسانية والتراث الفلسفي الذي يمثل المنتج الأبرز في تراث الإغريق؛ ورغم أن الحضارة الإنسانية تدين لما قدمه فلاسفة الإغريق من كتابات أسهمت في تقدم البشرية في مجال المعرفة وعلى الأخص ما قام به أرسطو فيما قدمه مما عرف بالمنطق الذي صان به العلم عن تمويهات السفسطائية ، غير أن المجتمع الإغريقي عانى كغيره من وجود طائفة تضيق بالفكر والمفكرين وتعتبر كل نقاش طعن في الثوابت ! وهو ما تعرض له بالفعل سقراط حيث تعرض لمحاكمة على ما قدمه من أفكار وأعدم إثرها!

وهذا الأمر الذي أدخل سقراط نفسه فيه إنما هو نوع من المعارضة السياسية على مستوى الفكر، فسقراط كان يعترض على النظام الديمقراطي الذي كان سائدا في أثينا في زمنه وكان يرى تفضيل الحكم الشمولي أو الملكي ويذكر أسبابا من وجهة نظره تؤكد ما يقول، لكنه على كل حال من الأحوال لم يتعد دوره كمفكر وفيلسوف، لكنه وعلى الرغم من ذلك فقد حوكم على ما قدمه من أفكار وهو لم يعتذر عن شيء من أفكاره بل ربما سخر ممن حكموا عليه !(١)، لكن في النهاية فإن فكرًا ساد في ذلك الوقت يعادي حرية الفكر ويرى ما قدمه سقراط هرطقة يستوجب محاكمته ليعدم سقراط في نهاية الأمر!

وهو ما يجعلنا نؤكد على أن التضييق على حرية الفكر في أي مجتمع يؤذن بحتمية

(١) انظر محاكمة سقراط صـ٢٥ تأليف :آي اف ستون ترجمة نسيم مجلي ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب

الصدام ويوقع المجتمع في الصراع من قبل أصحاب الأراء المتعارضة ؛ نتيجة لما يلحق بأصحاب الفكر والرأي الممنوع من إيذاء وتضييق مما يؤخر مسيرة التقدم في المجتمع، بينما لو تم عرض ومناقشة الفكر والرد عليه بالفكر لأثر ذلك بالإيجاب على المجتمع بوجه عام ، وهو غالب ما تميزت به اليونان في هذه العصور .

- حتمية الصدام عند بني إسرائيل :

بنو إسرائيل هي مجموعة القبائل التي تنتسب إلى نبي الله يعقوب عليه السلام ،وقد أكثر الله تعالى من أنبيائهم وقد ذكر الله أنه اصطفاهم على العالمين في زمنهم ، لكنهم رغم كثر نعم الله عليهم حيث نجاهم من عدوهم ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه : ٨٠] غيروا وبدلو وحرفوا بل وتمادوا فكذبوا الأنبياء وقتلوا بعضهم ، فاستحقوا سخط الله عليهم بعد ان لعنتهم انبياؤهم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨] .

وكان من جملة ما اقترفوه اعتقادهم من أنهم شعب الله المختار ! وهي فكرة حتى لو وجدوا لها أثرا في نصوصهم الدينية غير أنهم تصرفوا فيها على نحو حولها إلى فكرة جعلت بني إسرائيل مصابون بعقدة الاستعلاء ، حيث اعتبروا أنفسهم شعبا من نوع خاص، وبأنه شعب لا يمكن اعتباره من البشر فهم في ناحية وباقي الأمم في ناحية أخرى ، وكما يشير أحد الباحثين فإن اسطورة الشعب المختار كان لها دورها في إنتاج هذه

الدائرة الجهنمية المفرغة التي على أساسها شعر اليهود دائما أنهم معزولون، ومقتلعون من أوطانهم من جانب ومن جانب آخر نظرت إليهم المجتمعات المضيفة على أنهم مقاومون لأي اندماج وعامل اضطرابات محتمل[1] !

- ظهور فكرة حتمية الصدام في الفرق الإسلامية:

بعد أن طوفنا على تاريخ ظهور فكر حتمية الصدام في الحضارات القديمة وعند الأمم السابقة فمن المناسب أن نستعرض أيضا بعض تجليات هذا الفكر في التاريخ الإسلامي وبين الفرق الإسلامية ، ولعل أوضح ما يمكن أن يمثل ذلك المصدر وهذا التجلي هو فكر فرقة الخوارج التي حاربت الإمام عليا عليه السلام، بعد أن كفرته وكفرت كل من كان معه ، وكذلك حاربوا كل إمام لا يوافق أهوائهم ، و ذلك ما قرره الإمام الشهرستاني في موسوعته " الملل والنحل " لبيان آراء الفرق في بيان معتقدات الخوارج وطوائفها قال عن الخوارج إنهم : " قالوا بوجوب قتال السلطان، وحده، ومن رضي بحكمه. فأما من أنكره فلا يجوز قتاله إلا إذا أعان عليه، أو طعن في دين الخوارج، أو صار دليلا للسلطان "[2]

فهاهم يعتقدون وجوب قتال حكام المسلمين ما داموا مخالفين لآرائهم، ما يعني أن ذلك المعتقد أصل من أصول حتمية الصدام مع السلطة والمجتمع كما هو اضح من

(١) أعداء الحوار أسباب اللاتسامح ومظاهره مايكل أنجلو ياكوبوتشي صـ١٣٣ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٢٩ ط. مؤسسة الحلبي

كلام الشهرستاني عنهم فهم لا يقبلون أي معارضة لمذهبهم ولا يقبلون حلولا وسطىٰ مع أحد فإما أن تكون معهم أو الصدام !

لذا وعبر أكثر من ألف سنة أخذ فكر الخواج في التلون والتطور في شكله دون مضمونه إلا قليلا، وسعىٰ في اكتساب أرض جديدة والانتشار؛ لضرب بلاد الإسلام وضرب وحدة واستقرار المجتمعات!

ولعل هذا ما صاغه إمام آخر من أئمة الدين وهو الإمام ابن حزم الأندلسي حيث يحكي عن أولئك المخربين قائلا : " واعلموا رحمكم الله أن جميع فرق الضلالة لم يجر الله علىٰ أيديهم خيرا ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية ولا رفع للإسلام راية وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين ويفرقون كلمة المؤمنين ويسلون السيف علىٰ أهل الدين ويسعون في الأرض مفسدين "[1].

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم الأندلسي ٤ / ١٧١ ط. الخانجي

ثالثا : فكرة حتمية الصدام في الفلسفات الحديثة والمعاصرة:

لم تقف فكرة حتمية الصدام عند عصر من العصور أو أمة من الأمم؛ ولذلك نجدها تظهر في بعض الفلسفات الحديثة والمعاصرة، ومن أوضح الفلسفات التي تبنت هذه الأفكار القائمة على فكرة الصراع والصدام فلسفة فردريك نيتشه [١٨٤٤ -١٩٠٠] وكانت فلسفته تحمل نوعا من تعظيم اعتماد الفرد على نفسه وكان يتكلم عن فكرة الإنسان الراقي الذي يتحكم في العالم في مواجهة ما دون ذلك الإنسان الراقي ! وجعل نيتشه في جزء من كتابه الأشهر :" هكذا تكلم زرادشت" يتكلم عن فكرة موت الإله ليعلل موته بأنه مات لأنه كان رحيما! [١] فبإزالة مفهوم الرحمة من المنظومة يرد مفهوم الصراع والبقاء للأقوى يقول نيتشه أيضا في كتابه هذا : " لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي، ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة؛ لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضا لتتحكم فيمن هو أضعف منها! "[٢]

لا نتعجب كثيرا إذا علمنا أن فلسفة نيتشه وغيرها من هذه الفسلفات اللادينية قد كانت سببا رئيسيا لظهور أفكار النازية التي تعتمد اعتمادا أكيدا على فكرة الصراع وحتمية الصدام وإلى هذا يشير بعض الباحثين قائلا : " وقد فك هتلر شفرة الخطاب

---

(١) هكذا تكلم زردادشت صـ١١٢ فردريك نيتشه ترجمة فليكس فارس ط.دار هنداوي

(٢) السابق صـ ١٤٤

الفلسفي الغربي بكفاءة غير عادية حينما قال يجب أن نكون مثل الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة، وقد تبع في ذلك كلاً من داروين ونيتشه "[١]

ينضم أيضا إلى هذه الفلسفات الماركسيةُ المنسوبة للألماني كارل ماركس [١٨١٨ -١٨٨٣] والتي بدأت إرهاصاتها بما قام به الفيلسوف الألماني هيجل [١٧٧٠ – ١٨٣١] في ما يسمى بالجدل أو الديالتيك، حيث اعتبر هيجل الجدل مفسرا لكل الظواهر البشرية من تاريخ وفكر وفن وسياسة وقانون .....إلخ هذه الظواهر الإنسانية [٢]

وهذه الفلسفة أخذت في التطور والتبلور لتتحول على يد البلاشفة إلى نظام سياسي قضى على روسيا القيصرية في سنة ١٩١٧ م ليتحول إلى الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٢٢ ،وعقب ذلك بسنوات وصل الشيوعيون في الصين إلى سدة الحكم سنة ١٩٤٩ م ، وقد أدى تفشي الفلسفة الشيوعية بتنوعاتها وظهور العديد من الحركات الثورية التي تتبنى المنهج الشيوعي إلى زيادة معدلات العنف بكافة صوره ولعل أول ما اتسمت به هذه الحركات هو عداؤها ضد الدولة والسلطة بكافة أشكالها فالدولة في الرؤية المركسية تقوم بدور حرمان الطبقات المستغلة من وسائل النضال ! فالدولة حسب رأي ماركس هي منظمة للسيطرة الطبقية ولاضطهاد طبقة على يد طبقة أخرى"[٣] .

(١) موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري ١/ ٧١ ط.دار الشروق

(٢) الطيب ط.دار الطباعة المحمدية مفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والماركسية أ.د أحمد

(٣) أصول الفلسفة الماركسية ٢/ ١٣٩ جورج بوليترز وجي بيس، موريس كافين تعريب شعبان بركات منشورات المكتبة العصرية

و من المهم أيضا أن نذكر أن من رحم الاتجاه الماركسي خرجت أسوأ جماعات العنف ضد السلطة وضد فئات المجتمع، وكانت تتبنى فكر الصدام والعنف بل والانعزال الشعوري عن سائر طوائف المجتمع، من ذلك ما سجلته بعض الكتابات التاريخية التي تكلمت عن تاريخ الإرهاب من أن هناك شخصا يدعى : سيرجي نيتشايف ـ وهو من قد انتهت حياته ايضا بالسجن والموت الغامض في روسيا ـ وهو نموذج من نماذج الإرهابيين العدميين الروس في القرن التاسع عشر الذي استهوته عواصف العنف العدمي العقيم فأباح كل شيء ومزق هالات الأفكار ودمر القيم والمقدسات إذ عندما أبدي واحد من جماعته السرية بعض الشكوك حول التنظيم قتله نيتشايف في كمين. فسأله رفيق له: أي حق لنا في أن نقتل إنسانا؟ فكانت إجابته: المسألة ليست مسألة حق بل مسألة واجبنا في أن نزيح كل من يلحق الضرر بالقضية. إذن القضية ـ كما يراها ـ حقيقة مسلم بها ولا سبيل إلي أي نوع من أشكال مراجعتها وباسم الدفاع عنها فإن القتل معد لدي نيتشايف ضد الجميع بلا استثناء[1]

ومن هذه الفلسفات اللادينية وبسبب نزعات الشر في البشر اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ -١٩١٨ والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ والتي كانت أكبر تجلٍ للصدام العالمي اللاإنساني الذي يسعى لاستعراض القوة والهيمنة وفرض السيطرة بما يؤدي لاختلال قيم العدالة والتعايش بين البشر

(١) انظر مواجهة تخريب العمران!

بقلم : د. فوزي فهمي، جريدة الأهرام ٤٣٩٠٤ السنة ١٣١ -العدد ٢٠٠٧ فبراير ١٩

ومن رحم هذه الأفكار والفلسفات بل بين جنبات هذا المناخ المليء بالصراعات ظهرت الأفكار الأولى والبذور الأولى لفكر حتمية الصدام الذي سيطر فيما بعد على التيارات المتطرفة المنتسبة للإسلام .

ولعل هذا الفكر قد ظهر مرة أخرى ولكن تحت مسمى جديد بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وظهور مفهوم العولمة والنظام العالمي الجديد، وطرح وقتها ما يعرف بأطروحة صدام الحضارات التي نشأت على يد صموئيل هنتجتون الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية وأحد منظري التيار المحافظ في الولايات المتحدة الأمريكية ووتتلخص أطروحته أن أساس اختلاف الحضارات هو التاريخ واللغة والحضارة والتقاليد، ولكن أهم العناصر طراً هو الدين . فكأن هناك صراعاً حضارياً في العالم هو في واقع الأمر صراع ديني، ثم يبلور هنتنجتون أطروحته بهذا الشكل (الحضارة الغربية مقابل الحضارات غير الغربية) [1] ، إذن لا يزال العالم الغربي تظهر ضمن فلسفاته فكر الصدام وحتمية الصدام ، ولكن ما يؤمن به هؤلاء ويظهر أثره في فكرة الحتمية هو ليس استمرار الصراع والصدام بل حسمه لصالح الغرب !.

وهو ما يظهر في أطروحة أخرى مشابهة لصدام الحضارات وهي فكرة نهاية التاريخ التي طرحت من خلال كتاب لفرانسيس فوكوياما عالم السياسة الأمريكي الذي صدر كتابه عام ١٩٩٢ م ولقي انتشارا واسعا وكان يطرح من خلال كتبه هذا فكرة أن العالم

(١) انظر المسيري موسوعة اليهود واليهودية ٢/ ٢٦٦

الغربي بما وصل إليه من نموذج للحداثة قد وصل العالم به لقمة التطور الإنساني وبالتالي فمردود ذلك هو التأكيد على سيطرة وهيمنة الفكر الغربي ونجاحه في حسم هذا الصراع لصالحه يقول فوكوياما في مقدمة كتابه نهاية التاريخ : " هناك إجماع ملحوظ قد ظهر في السنوات القليلة الماضية في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل الملكية الوراثية والفاشية والشيوعية في الفترة الأخيرة غير إني أضفت إلى ذلك قولي إن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري وبالتالي فهي تمثل نهاية التاريخ! ..... إلى أن قال : " وقد يرتد البعض إلى أشكال أخرى للحكم أكثر بدائية، كالحكومة الدينية أو الديكتاتورية العسكرية ، إلا أنه من غير المستطاع أن نجد ما هو أفضل من الديمقراطية الليبرالية مثلا أعلى ! "[1]

إذن بان لنا من خلال ذلك الاستعراض التاريخي لأصول ومصادر فكرة حتمية الصدام ما يلي :

١ – ظهور فكرة حتمية الصدام مع بداية ظهور الجنس البشري واستجابة بعضهم للغواية الشيطانية.

٢ – أن هناك أفكارًا ومعتقداتٍ وسلوكيات يتولد عنها القول بحتمية الصدام وهي جميعا تنطلق من نموذج معرفي يخالف الشرائع الربانية والأعراف والقيم الإنسانية

(١) نهاية التاريخ فرانسيس فوكوياما صـ ٨ ترجمة حسين أحمد أمين نشر مركز الأهرام للنشر والترجمة

مثل التضييق على حرية الرأي أو القول بأفضلية شعب على آخر أو أن القول بأن البقاء للأقوى.

٣ – أن مهما ظهرت أي من هذه الأفكار والمظاهر التي تتبنى القول بحتمية الصدام فإن عاقبة ذلك تكون وخيمة على الجنس البشري؛ حيث ينتج عن ذلك الحروب والدمار وإزهاق الأرواح البريئة.

الفصل الثاني

نماذج لأبرز القائلين بفكرة حتمية الصدام في العصر الحديث

-أولا : جماعة الإخوان المسلمين :

ما السمات التي ترشح جماعة الإخوان لتكون نموذجا للجماعات التي تتبنى العنف وحتمية الصدام ؟

تتسم جماعة الإخوان بعدد من السمات التي قد توجد في كل جماعة غيرها بعض من تلك السمات، و لا تجتمع جميع هذه السمات في جماعة غيرها وهو ما يجعل اختيار جماعة الإخوان كنموذج اختيارا صحيحا، وأما هذه السمات الداعية لاختيارها على وجه الخصوص فهي:

١ - أسبقية ظهور الجماعة على كافة جماعات العنف المسلح في العصر الحديث :

فجماعة الإخوان تعد بمثابة الجماعة الأم فهي قد ظهرت في عشرينيات القرن العشرين، مما جعل كثيرا من الجماعات الأخرى تستلهم أفكار ورؤى جماعة الإخوان، بل وتجعل بعض قادتها في مصاف القادة والأبطال والزعماء الدينيين.

٢ - الانتشار في معظم بلدان العالم الإسلامي :

فجماعة الإخوان نجحت من خلال انتهاجها لأساليب معينة في أن تنتشر في كثير من البلاد العربية والإسلامية، مما يؤكد على أهمية مواجهة أفكار هذه الجماعة التي لا تخلو منها بلد مسلم، بما لا يتوفر لأي جماعة أخرى على طول وعرض العالم الإسلامي.

٣- كثرة ووفرة المراجع وأدبيات الجماعة :

من السمات أيضا في جماعة الإخوان اعتماد قادتها على التثقيف ونشر الأفكار بشكل غير مسبوق وهو ما لم يتوفر لأي جماعة أخرى تعتمد فقط على الحركة أو على العمليات الإرهابية مباشرة ، وهذه الكتب والمؤلفات يظهر من خلالها التأويل المنحرف للدين – على النحو الذي سنأتي على تفصيله- فهم لا يكتفون بالأفعال المنحرفة التي توافق عمل الخوارج فقط بل إنهم يعتمدون على جملة من الأفكار التي يروجون لها ، مما يجعل لهذه الجماعة سندا من المصنفات والكتب والمراجع التي يتوفر على نشرها وتدريسها أفراد الجماعة؛ ، ويكفي على سبيل المثال ذكر كتاب مثل ظلال القرآن لسيد قطب الذي طبع حتى الآن لكثر من أربعين طبعة وترجم للعديد من لغات العالم على الرغم مما يحمله الكتاب من أفكار تدعو للصدام المجتمعي وتتبنى عقيدة الصراع بين البشر ولذلك فكان من الواجب أن يتم التعرض لهذه الأفكار بشكل علمي لبيان خطورة ما تحمله من أفكار، وما يترتب على انتشار هذه الأفكار من أثر على الأفراد والمجتمعات.

التعريف بجماعة الإخوان وأهم سماتها :

في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين كانت مصر لا تزال تحت وطأة الاحتلال الإنجليزي، وكانت مصر كذلك تموج بالحركات والأحزاب السياسية، و العديد من

الحركات التحررية التي تسعىٰ لتخليص مصر من ذلك الاحتلال كحزب الوفد وحزب مصر الفتاة والأحرار الدستوريين ،وكان ضمن هذه الحركات ما عرف بجماعة الإخوان المسلمون التي تأسست علىٰ يد حسن البنا أوائل سنة ١٩٢٨ .

وحسن البنا مؤسس هذه الجماعة ولد سنة ١٩٠٦ م و هو أحد أبناء الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الساعاتي الذي كان مشتغلا بالحديث الشريف وهو صاحب ترتيب وشرح مسند الإمام أحمد .

التحق حسن البنا بمدرسة المعلمين ثم تخرج من مدرسة دار العلوم سنة ١٩٢٧ ، ومن خلال دراسة حياة المؤسس حسن البنا يتأكد لنا أن محصلته من العلم لا تتعدىٰ ما يحتاجه الخطيب لخطبة جمعة أو لدرس وعظ، أو كما كان بالفعل كمدرس للتربية الدينية واللغة عربية في المدراس الابتدائية[1] ،كما تعكس دراسة حياة المؤسس كما أخبر هو عن نفسه أنه كان صاحب حمية دينية متقدة ،ورغم صحبة المؤسس حسن البنا لبعض مشايخ الصوفية إلا أنه لم يلتزم طريق التصوف طول حياته إثر خلاف بينه وبين شيخ الطريق الشيخ عبد الوهاب الحصافي الذي كان شيخا للطريقة الشاذلية ؛ وربما كان ذلك سببا في بعض سلوكه من عدم اتزان؛ مما جعله في بداية حياته يتطاول علىٰ أحد كبار علماء الأزهر الشريف متهما العلماء بالضعف والخوف علىٰ الراتب كما

(١) مذكرات الدعوة والداعية صـ :٣٣ ط. مكتبة آفاق

أخبر هو عن قصته مع العلامة الشيخ يوسف الدجوي رحمه الله [1]؛ ولا شك أن حركة الإخوان المسلمين في البداية كانت مثلها مثل مئات الجمعيات الدينية التي نشأت بغرض المحافظة على الآداب الإسلامية ونشر الأخلاق والقيم، و الدعوة إلى البعد عن الفساد الأخلاقي، وكان سبيل تلك الجمعيات هو إنشاء المساجد ورعايتها وعقد المحاضرات والدروس الدينية ومخاطبة الجماهير عن طريق الصحف والمجلات المشهورة ، لكن ما كان يفرق حركة الإخوان في ذلك هو أنها لم تكتف بالطريق السابق بل انخرطت في الحياة السياسية وآثرت الدخول لمعترك الأحزاب والتيارات السياسية مثل اي حزب من الأحزاب السياسية مما جعل الناس ينقسمون بشكل حاد على تلك الجماعة وعلى أغراضها الحقيقية !

ولم يقف الأمر عند سلوك سبيل السياسة لكنها اصطدمت بالفعل بالحكومة القائمة

---

(١) المرجع السابق صـ٥٨ يقول حسن البنا موجها كلامه للشيخ الدجوي :" يا أستاذ ،إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذي تأكلون .

والشيخ يوسف الدِّجْوي : هو يوسف بن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوي: مدرّس من علماء الأزهر، ضرير. من فقهاء المالكية. ولد في قرية " دجوة " من أعمال القليوبية. وكف بصره في طفولته، بمرض الجدري. وتعلم بالأزهر هـ وتوفي ١٩٤٦ م. له كتب، منها " خلاصة علم الوضع – ط " و " تنبيه المؤمنين لمحاسن الدين – ط " و " سبيل السعادة – ط " في الأخلاق، و " الجواب المنيف في الرد على مدّعي التحريف في الكتاب الشريف – ط " و " رسائل السلام" انظر الأعلام للزركلي ٨ / ٢١٦

آن ذاك مما أسفر عن قتلهم لرئيس وزراء مصر محمود فهمي النقراشي [1] رحمه الله تحت زعم أنه قد خان الله ورسوله ﷺ حيث يقول أحد من تلطخت يدهم بدماء الأبرياء وأحد أعضاء التنظيم الخاص في مذكراته مبررا قتل النقراشي رحمه الله ومدافعا عن قتلته قائلا: "لكنهم كانوا رجالا قد تعلموا أن قتل المحاربين للإسلام فرض عين على كل مسلم ومسلمة !، وقد تحقق لهم بعد اطلاعهم على هذا الأمر العسكري -يقصد أمر حل جماعة الإخوان - أن من وقعه محارب غادر للإسلام والمسلمين دون نزاع " [2] فهم لم يكتفوا بما كانت تردده الحركات السياسية التي مارست الاغتيالات السياسية آن ذاك؛ من مزاعم الخيانة للوطن أو نحو ذلك، بل أضافت لها تعليلا دينيا وتبريرا تزعم أنه شرعي، فلزم التنبيه على براءة الشرع الشريف من تلك الآراء الشاذة التي تحاول إلصاق جرائمها بالشرع الشريف والله من ورائهم محيط.

(١) محمود فهمي (باشا) ابن علي النقراشي: سياسي مصري تولى مناصب تنفيذية وزارية في الفترة من ١٩٣٠ حتى اغتياله ديسمبر ١٩٤٨ ومنح لقب (باشا) . وكان معروفا بصدق الوطنية، وعفة النفس واليد وكان مشاركا في الحركة الوطنية في حزب الوفد ثم من خلال حزب أسسه مع أحمد ماهر باشا سمي الهيئة السعدية، ينظر كتاب محمود فهمي النقراشي ودوره في السياسة المصرية ؛د:سيد عبد الرازق يوسف عبدالله ط.مكتبة مدبولي .

(٢) حقيقة التنظيم الخاص صـ٨٢ ،محمود الصباغ ط.دار الاعتصام

وقد نشأ من رحم الجماعة على مدى أكثر من ثمانين عاما العديد من دعاة التكفير كان من أبرزهم المفكر سيد قطب [1] صاحب كتاب "معالم في الطريق" وهو كما سيظهر بعد ذلك عبارة عن بيان تكفيري صدامي للمجتمعات المسلمة في العصر الحديث، وهناك من المنتمين لتلك الجماعة أسماء أخرى تحمل الفكر التكفيري وصدام المجتمع، لكن لم يكتب لها من الشهرة ما كتب لسيد قطب مثل زينب الغزالي [2] وعبد القادر عودة [3] ومنير الغضبان [4] وغيرهم مما سنورد أقوالهم لتفنيدها وبيان ما وقعت فيه من نشر وتأييد

(١) سيد قطب بن إبراهيم: مفكر وأديب مصري، من مواليد قرية (موشا) في أسيوط. ١٩٠٦ م وتخرج بكلية دار العلوم (١٩٣٤ م) وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) وعين مدرسا للعربية، فموظفا في ديوان وزارة المعارف. ثم (مراقبا فنيا) للوزراة. وأوفد في بعثة لأميركا ،انضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣ - ٥٤) وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها حتى اتهم سنة ١٩٦٥ بالتخطيط لانقلاب على نظام الحكم وحكم عليه بالإعدام في أغسطس ١٩٦٦ م وكان لإعدامه عاملا مؤثرا على انتشار فكره الذي كان يجنح لتكفير المجتمعات والدعوة للمفاصلة مع تلك المجتمعات التي لا تحكم بشريعة الإسلام من مؤلفاته ظلال القرآن ومعالم في الطريق والعدالة الاجتماعية في الإسلام وغيرها انظر ترجمته : الأعلام للزركلي ٣/ ١٤٧ .

(٢) زينب الغزالي الجبيلي ناشطة سياسية تنتمي لجماعة الإخوان المسلمين من مواليد سنة ١٩١٧ م وقد كانت مسئولة النشاط النسائي في الجماعة تعرضت للسجن بسبب انخراطها في أنشطة محظورة في جماعة الإخوان منها السعي لإحياء التنظيم سنة ١٩٦٥ وسجلت ما حصل لها في السجن في كتاب أيام من حياتي توفيت ٢٠٠٥ م .

(٣)قاض مصري انتمي لجماعة الإخوان المسلمين من مواليد ١٩٠٦ م ، وأعدم على إثر اتهامه في الاشتراك في محاولة اغتيال جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٤ له مؤلفات في المقارنة بين الشريعة والقانون.

(٤) منير محمد الغضبان من مواليد سوريا ١٩٤٢ ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين ووصل إلى منصب المراقب العام للإخوان في سوريا وتوفي ٢٠١٤ وله العديد من المؤلفات التي تنضح بفكر التكفير وصدام المجتمع من أبرزها الفقه الحركي للسيرة النبوية

لفكر حتمية الصدام.

بعد هذا العرض الموجز لنشأة جماعة الإخوان الجماعة الأم لسائر جماعات العنف السياسي المتستر بالدين ، نعرض اهم ما جاء في خطاب الإخوان ومعالم فكرهم ونرصد مدىٰ تطوره بعد ذلك في سائر التيارات العنيفة بعد ذلك

- خطاب المؤسس الأول حسن البنا وفكرة حتمية الصدام:

كان حسن البنا خطيبا رائعا بشهادة الكثيرين؛ مما جمع حوله العديد من الناس في وقت قصير، بالإضافة لتناوله القضايا العامة كقضايا الاحتلال الأجنبي وفساد الحياة السياسية وغير ذلك مما يحب الناس سماعه وتناوله فيما بينهم .

وخلال العشر سنوات الأولىٰ من عمر الجماعة كان هم حسن البنا الانتشار بين أوساط الشباب والطبقة المتوسطة وطلاب الأزهر الشريف ، وفي عام ١٩٣٨ كان حسن البنا يخطب في الآلاف من أنصاره فيما يعرف بالمؤتمر الخامس الذي يعلن فيه عن أهداف ووسائل جماعته بشكل أكثر وضوحا،لكن من بين كلماته في هذا المؤتمر كان هناك أمر جديد في الخطاب، وهو خطاب تظهر فيه الجماعة في مواجهة المجتمع لأول مرة ، فبدلا من مسلك الدعاة الذي ينطلق من المجتمع ويعود إليه في إطار الدين النصيحة ، ينطلق حسن البنا من أسئلة وجودية حول كنه الجماعة وهدفها وأساليبها ويقف مزهوا بالعدد الذي وصلت له جماعته ليعلن في مؤتمره هذا عن عدة أمور من أهمها قوله : " إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد

استكملوا عدة الإيمان والوحدة ، وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح. "[1]

فها هو يهدد ويتوعد بالصدام المجتمعي طالما أن المجتمع دفعه لذلك!!

ويقول بعد ذلك في تهديد أكبر مصرحا بحتمية الصدام يقول : " فسيؤدي ذلك حتما إلي ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال ، وإهمال مرافق الإصلاح "[2] ، فسبيل الإصلاح في رؤية البنا لا يقف فقط عند حدود الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لكنه في مرحلة معينة يتحول إلى ضرورة المواجهة بالقوة وحتمية الصدام ، ليس هذا فحسب بل إن البنا قد ذهب إلى أبعد من هذا حيث جعل مسألة المطالبة بالحكم واستنقاذ الحكم عند رفض الحكام النصح جعله من الواجبات في الدين! يقول : " قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ و الإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله و تنفيذا لأحكامه و إيصالا لآياته و لأحاديث نبيه أو أما الحال كما نرى : التشريع الإسلامي في واد و التشريع الفعلي في واد آخر أفإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف "[3].

---

(١) مجموعة رسائل البنا صـ ٣٥٤ ط.دار التوزيع والنشر

(٢) المرجع السايق صـ ٣٥٤

(٣) مجموع الرسائل صـ ٣٥٥

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا ،و لكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف"

إذن مآل كلام البنا هو حتمية صدام الحكام طالما لم يستمعوا لنصائح المصلحين طلبا لإسقاطهم ، ثم يدعي أن ذلك الكلام هو من أحكام الدين، من غير أن يأتي على هذا الكلام بأي دليل وما هو إلا ترديد لمذهب الخوارج المارقين .

ولا يخفى ما في عبارة البنا " لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف" من تعريض بكفر من لم يحكم بما أنزل الله مما مهد لظهور تيارات التكفير !

وإذا كان ما سبق من نقل يعتبر مجاله هو حتمية الصدام داخل المجتمعات المسلمة لكن البنا يذهب لما هو أبعد من ذلك فيقول في رسائله أيضا "

وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الإخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسيا روحياً بالإيمان والعقيدة ، وفكرياً بالعلم والثقافة ، وجسمياً بالتدريب والرياضة ، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار ، وأقتحم بكم عنان السماء . وأغزو بكم كل عنيد جبار ، فإني فاعل إن شاء الله ، وصدق رسول الله القائل: (ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة). إني أقدر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته " [1]

وواضح من هذا النص كيف أن البنا يعد جماعته ليس لصدام مجتمعه فقط بل لصدام العالم، وهو ما لا يتفق مع شريعة الجهاد التي تتطلب وجود راية وإمام وغاية

(١) مجموع الرسائل صـ ٣٤٤

مشروعة منه وهي رفع الاعتداء ، وليست غاية الجهاد جر المسلمين وتوريطهم في حرب عالمية تأتي على الأخضر واليابس .

قتل حسن البنا في ١٢ فبراير ١٩٤٩ م بعد قليل من قرار حل الجماعة لتورط أعضائها في أعمال إرهابية كثيرة ،ولم يتحقق حلم البنا بغزو العالم ، لكن الذي تحقق هو انقسام المجتمعات المسلمة وإيمان أتباع البنا وإلى يومنا هذا بضرورة الصدام بينهم وبين مخالفيهم ،مما أوقع آلاف القتلى والضحايا من المسلمين وغيرهم عبر أكثر من ثمانين سنة.

ولا يزال يظهر في خلفية هذه الأحداث المؤسفة صوتُ البنا معلنا في وضوح احتكار الإسلام لصالحه هو وجماعته البعيدة عن سماحة الإسلام ، ويتردد صدى صوته قائلا " **وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لاحظ له في الإسلام ، فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها.**"[1]

لم تتوقف دائرة التطرف باغتيال حسن البنا ولم تنته باعتقال أفراد جماعته، بل ربما أخذت سبيلا أكثر تطرفا واتساعا عن ذي قبل، فبعد اغتيال البنا أحس واستشعر أفراد الجماعة وجود مؤامرة عليهم أودت بمرشدهم الأول ، مما كرَّس في نفوسهم الانتقام من ناحية وأشعل جذوة فكرة الصدام من ناحية أخرى ، وقد دخلت الجماعة بعد البنا في احداث كثيرة كلها تصب في هذا الاتجاه مزيد من التطرف ومزيد من التوتر وعدم

(١) مجموعة الرسائل صـ ٣٢٣

الاستقرار المجتمعي .[1]

سيد قطب ودوره في إرساء فكرة حتمية الصدام :

لم يكن سيد قطب يملك ما كان يملكه حسن البنا من سهولة التحرك ولقاء الجماهير بل والاجتماع مع الأتباع وبث أفكاره فيهم، لكنه كان -بالإضافة لميله للعزلة – محبوسا في معظم حياته منذ أن أعلن التحاقه بصفوف جماعة الإخوان، هذا الأمر يعد أمرا محوريا في فهم فكر سيد قطب أشهر من أصَّل ورسَّخ لأيديولوجية التكفير والعنف، فعدم تفرغ حسن البنا للكتابة بشكل تأصيلي جعل معظم خطاباته وليدة الحماس أو الانفعال للأحداث، لكن الأمر يختلف مع سيد قطب الذي بدأ أديبا بل وصل لدرجة الناقد الأدبي ضمن مدرسة العقاد، ثم اتجه للكتابة الإسلامية، مع كتاب العدالة الإسلامية وغيره، لكن مع كثرة ما ألفه سيد قطب إلا أن كتابه " في ظلال القرآن" و"معالم في الطريق" كانا الأكثر شهرة ؛ فالأول هو كتاب حوى تفسيرا للقرآن الكريم لكنه أضاف على التفسير آراءه التي تعيد بناء فكر الخوارج، وكذلك كان كتابه معالم الطريق أصلا من أصول التطرف وتأصيلا لفكرة حتمية الصدام ليس مع المجتمع فقط بل مع العالم!

ولعل هذا هو الفرق بين ما تركه حسن البنا وبين ما تركه سيد قطب، فسيد قطب

---

(١) يلاحظ أن إشكالات خطاب البنا كثيرة جدا ولولا خشية الخروج عن موضوع البحث لتتبعتها ، لكن ينظر على سبيل المثال : أزمة التنظيمات الإسلامية (الإخوان نموذجا) د.جاسم سلطان ط.الشبكة العربية للأبحاث والنشر

تمكن من بلورة فكر التطرف والعنف من حيث النظرية والأفكار والأهداف، وحتى صياغة المصطلحات التي تعبر عن آراءه الهدامة! ، ولذلك وإن اعتبر حسن البنا زعيما روحيا لجماعة الإخوان المسلمين فقط، فإن سيد قطب زاد عليه بأنه زعيم روحي وملهم لكافة التيارات المتطرفة لنجاحه في صياغة الأيديولوجية على نحو قد شكل وجدان الحركات المتطرفة لعدة سنوات، ومثَّل سيد قطب بسبب ما تم من سجنه ثم إعدامه نموذجا ملهما لكثير من الشباب الذي ارتبط بهذه التيارات المتطرفة!.

أهم ملامح ومعالم فكر سيد قطب بشكل عام :

و قبل الشروع في بيان علاقة سيد قطب بنشر فكر حتمية الصدام؛ لا بد أن نفهم جيدا فكر سيد قطب ويمكن تلخيص أهم ملامح فكر سيد قطب ومعالمه الرئيسة في النقاط التالية :

١- مركزية (نظرية الحكم) في كتابات سيد قطب؛

بحيث إنه يكاد يجعل المقصد الأول من وجود المسلمين هو حكم العالم وإزالة كافة الأنظمة المخالفة للإسلام حتى لو لم تكن هذه الأنظمة العداء للإسلام يقول سيد قطب :

" إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد. فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية

الإنسان للإنسان"[1].

وهو خطأ محض وكذب على الشريعة وجهل بالتاريخ الإسلامي؛ فعلى سبيل المثال لم يحدث أن سير المسلمون جيشا لحرب الحبشة وفتحها رغم وصول المسلمين لأبعد منهم كما في الأندلس مثلا؛ وذلك سببه عدم عداء نظام الحبشة غير المسلم للمسلمين ولم يبد منهم أي تحرك ضد الدولة المسلمة، بل إنهم استضافوا الصحابة رضي الله عنهم في أثناء حكم النجاشي الذي اعتنق الإسلام دون باقي نظامه واستمروا على النصرانية بعد وفاته رضي الله عنه [2]، فكيف يقال بعد ذلك إن الإسلام جاء لإزالة كافة الأنظمة المخالفة للإسلام.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٣/ ١٤٣٥ ط.دار الشروق

(٢) روى ابن إسحاق في سيرته قصة إسلام النجاشي فروى عن عائشة، قالت: لما مات النجاشي، كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور.

إسلام النجاشي والصلاة عليه وخروج الحبشة عليه: قال ابن إسحاق: وحدثني جعفر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإذا هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم؛ ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفوا له؛ فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا. بلى؛ قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا. خير سيرة؛ قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد؛ قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله؛ فقال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى ابن مريم، لم يزد على هذا شيئا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا١ . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلما مات النجاشي صلى عليه، واستغفر له ، انظر : سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٣ ط.شركة الطباعة الفنية المتحدة

٢ – تغييره كثير من المعاني الشرعية واستبداله مفاهيم خاطئة بدلا من المفاهيم الصحيحة :

فسيد قطب لجهله بالشريعة –فهو ليس له شيوخ درس عليهم الشريعة بالشكل الكافي– بدأ يغير الكثير من المفاهيم الشرعية ويصك مصطلحات لها دلالات غامضة أو مشوهة ، فعلى سبيل المثال : مصطلح الحاكمية الذي استخدمه سيد قطب ليجعل أي مخالفة للشرع خروج عن الحاكمية مما يعني الكفر والخروج عن الدين[١] .

وأيضا فكرة الأمة ورغم استخدامه لها إلا أنه أضاف عليها ما قيدها وأخرج منها جملة من المسلمين حيث استبدلها بمصطلح العصبة المؤمنة أو الطليعة ! فهو يجعل العصبة المؤمنة هي التي تستحق النصر والموعودة به فيقول : " وقد حقق الله لهم وعده. وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقاً، والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم" [٢] وخطورة ما يطرحه سيد قطب تظهر في تطبيقه ذلك المفهوم "العصبة المؤمنة "على من يتصدون لوهم إعادة الإسلام للواقع ! يقول عنهم : " إن العصبة المسلمة التي تحاول اليوم إعادة نشأة هذا الدين في دنيا الناس وفي عالم الواقع "[٣] ، فهل زال الإسلام من الوجود؟ فأين ذلك من قول المعصوم صلى الله عليه وسلم : " لا يزال ناس من أمتي

(١) انظر في تحليل فكرة الحاكمية عند سيد قطب كتاب الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين للدكتور أسامة السيد الأزهري من صـ ١٥

(٢) الظلال ٢/ ٦٨٢

(٣) الظلال ٣/ ١٤٨٢

ظاهرين حتىٰ يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون "[1] وحديث : "مثل أمتي مثل المطر لا يدرىٰ أوله خير أم آخره "[2]

قال الإمام البيضاوي في شرح هذا الحديث : " لاختصاص كل طبقة منهم بخاصية وفضيلة توجب خيريتها كما أن كل نوبة من نوب المطر لها فائدة في النشوء والنماء لا تملك إنكارها والحكم بعدم نفعها"[3]

٣ – نزوعه للفكر الثوري وتقديمه السعي على الوعي :

وهو أهم ما يميز فكر الحركات الإسلامية في مجملها أنهم يهربون من تكليف التعلم والتربية لصالح الثورة والحركة تعجلا بقطف الثمار ، فسيد قطب في كتاباته بصرح بعدم جدوىٰ تعلم الفقه الإسلامي وهو يقترب في هذا من العلمانيين الذي لا يرون الفقه الإسلامي صالحا للحياة فهو يقول : " والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب– دراسة باردة! – وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلىٰ للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ولا تتجلىٰ للمستغرقين في الكتب العاكفين علىٰ الأوراق! إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة. ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة. والذين يعكفون علىٰ الكتب

---

(١) رواه البخاري كتاب المناقب ، الحديث رقم ٣٦٤٠

(٢) سنن الترمذي أبواب الأمثال ،حديث رقم ٢٨٦٩

(٣) ط.وزارة الأوقاف الكويت تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة للإمام البيضاوي ٣/ ٥٨٤

والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاماً فقهية «يجددون» بها الفقه الإسلامي أو «يطورونه» – كما يقول المستشرقون من الصليبيين! – وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، وردهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت، هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين!"[1] أبهذا الكلام الفارغ عن الدليل يهال التراب على الفقه الإسلامي لصالح ما اسماه بالحركة ضد الطواغيت ،أيترك فقه الإمام الغزالي النووي والسرخسي والقرافي والدردير والكمال بن الهمام وابن قدامه والبهوتي وغيرهم لأنهم كانوا من فقهاء الأوراق ولم يقدموا على الحركة ضد الطواغيت

وليس هذا الكلام ببعيد عن فعل الخوارج السفهاء الذين وقفوا ضد جيش الصحابة الذين يتقدمهم سيدنا علي بن أبي طالب وسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورأوا في أنفسهم مجاهدين مخلصين وفي سيدنا علي ومن معه من الصحابة قاعدين متخاذلين.

هذه أبرز الملامح التي يمكن الإشارة إليها فيما تركه لنا سيد قطب من أفكار كان من مؤداها ومن لازمها حصول الصدام مع المجتمع المسلم حكاما ومحكومين بل وفقهاء فالحكام طواغيت والمحكومون في جاهلية ما داموا لم يثوروا على هؤلاء الحكام ، وأضف لذلك الفقهاء الذين قعدوا وركنوا إلى فقه الأوراق! ومآل ذلك كله قطع كافة الصلات مع المجتمع فلا يبقى سوى الصدام.

(١) الظلال ٣/ ١٤٣٦

بيان ما في فكر سيد قطب من الترويج لفكرة حتمية الصدام:

المتصفح لما سطره سيد قطب خاصة في كتاب "في ظلال القرآن" يلحظ تشبع سيد قطب بفكرة حتمية الصدام، وهو يحول آيات الكتاب العزيز إلى أدلة لدعاويه دون أدنى مراعاة للسياق أو لأقوال المفسرين أو لمقاصد الدين وقواعده.

وتتبلور فكرة حتمية الصدام عند سيد قطب في ثلاثة محاور :

- وجود الصراع بين المسلمين وغيرهم وأهميته للمؤمنين!

- قدرية هذه الصراع وديمومته

- لحوق العذاب بالمسلمين حال قعودهم عن صدام الغير.

١ - وجود الصراع بين المسلمين وغيرهم :

ففكرة الصراع تسيطر سيطرة تامة على قلب وعقل الرجل فهو يستحضرها لأدنى ملابسة، بل بدون أي مناسبة، ، فمثلا يقول قطب في ظلاله في مطلع سورة آل عمران وبيان سبب نزولها : "على أن هذه النصوص- كما قلنا في التمهيد للسورة- تكشف عن الصراع الأصيل الدائم بين الجماعة المسلمة وعقيدتها، وبين أهل الكتاب والمشركين وعقائدهم"[1] ، نلاحظ أنه ليس هناك شيئ في مطلع السورة ولا في سبب نزولها يذكر

(١) الظلال : قطب ١/ ٣٦٢

هذا الصراع الدائم كما يدعي، بل إن الآيات الكريمة يتنوع الخطاب فيها مع أهل الكتاب تنوعا كبيرا فمثلا نجد أن أول خطاب لسيدنا النبي ﷺ في مقام عرض الدعوة على أهل الكتاب قول الله تعالى:﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]فالآية لا تحمل أي تهديد أو وعيد لهم بل هي تفتح باب الرجاء في إيمانهم وتبشرهم بالهداية إذا هم أسلموا ، وتسلي قلب سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم عند عدم إيمانهم بأنه حينئذ قد أدى ما عليه ، ونجد بعد ذلك آيات أخرى في نفس السورة توضح إنصاف القرآن لأهل الكتاب وأنهم ليسوا سواء ، وتنسف هذه الآيات فكرة الصراع المتوهم معهم من الأساس قال تعالى : ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الآيات ١١٣ -١١٤ -١١٥ آل عمران] فأين ما يقوله القرآن من حقائق واضحة من أوهام الصدام والصراع مع غير المسلمين عند سيد قطب ؟!.

لم يقف سيد قطب عند إدعاء وجود الصراع بل إنه ادعى أمرا آخر هو أهمية وجوده كذلك ، فهو عنده من عوامل قوة الإيمان ! يقول : " إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة

عمقاً وقوة وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجاً كما وقع"[1] ، فهل دخول الناس في الدين سببه وجود الصراع! وهل دخل أهل مكة بسبب الحروب وما دار من صراع أم أن دخولهم كان بعد أن عفى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وخاطبهم قائلا : " يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء"[2] فدخلوا عن بكرة أبيهم في الإسلام وسائر العرب بعد ذلك ، وبأي شيء نفسر دخول الآلاف في الإسلام لمجرد رؤيتهم أخلاق المسلمين وحسن سيرتهم ، بل ودخول بعض الناس في الإسلام كالتتار بعد هزيمة المسلمين لما دخلوا لديارهم .

٢ – قدرية هذا الصراع وديموميته :

لم يكتف سيد قطب أن شكل في وجدان من يقرأ له عظم وجود الصراع ومركزيته في التعامل مع غير المسلمين ، ولم يكتف أيضا ان جعل الصراع مبررا محمودا لكونه سببا في دخول الناس في الإسلام لكنه جعل منه أيضا قدرا وحتما لا فكاك منه :يقول سيد قطب أيضا : " ليعلم أصحاب الدعوة إلى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضاً، وأنه لا يجديهم فتيلاً أن يتقوها ويتجنبوها. فالطواغيت لن تتركهم إلا أن يتركوا دينهم كلية "[3] ويقول بعد ذلك بقليل : "

(١) الظلال ١/ ٢١٩

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢

(٣) الظلال ٣/ ١٣٠٧

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة- حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة- إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل. وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل.. إنها سنة الله لا بد أن تجري "[1]

هذا النص أيضا من قطب يكشف عن ترسخ مفهوم حتمية الصدام لديه؛ فهو يجعل المسألة صراع دائم ووجودي بين الدعاة وبين الطواغيت؛ بل إنه يرفع سقف المسألة ليجعلها سنة تجري في الخلق ليجعل من سنن الله المحققة :المعركة مع الطاغوت! وهو أمر يصر عليه سيد قطب في ظلاله حيث يجعل من الأحداث الجزئية التي تحيط بها ظروف معينة نمطا سائدا وقانونا أصيلا، فليس حال الدعاة والمؤمنين بشكل عام واحد مع اقوامهم أو من يخالفهم، وهو ما يكشف عن عمق الخلط في فكر سيد قطب بين المواقف والمبادئ ، فالمواقف قد تقتضي صلحا أو سلما أو حربا أو عداء .....إلخ

بينما المبادئ لا تقبل التنازل ولا المساومة ، فصلح الحديبية عبارة عن اتفاق صلح مع المشركين الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوه هو وصحابته من وطنهم ، ولا يعني الصلح معهم الموافقة على باطلهم ! فهذا موقف يقتضي التوافق من أجل تحقيق المصالح العليا ، ولا يكر على المبادئ بالإبطال وهذا واضح أيضا في قوله : " وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات. فإذا سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها!

(١) الظلال ٣ / ١٣١٨

والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة ؛لكسب أصحاب السلطان إلى صفها هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة. والله وحده هو الذي يعتمد عيه المؤمنون بدعوتهم. ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرا !"[1].

إذن قراءة الظلال توصل القارئ إلى قناعة بتبني سيد قطب لوجود ضرورة تحتم الصراع والصدام بين العصبة المسلمة كما يسميها سيد قطب وبين الطواغيت وهم كل أعداء الدعوة ، من غير ان تفرق بين المواقف والمبادئ ولا بين حالة السلم وحالة الحرب ،وهو ما يستدعي انتباها وبيانا لهذه الأخطاء المتسترة خلف كتاب يُدَّعى أنه تفسير للقرآن الكريم!

٣ – لحوق العذاب بالمسلمين إذا قعدوا عن صدام الغير:

انتقل سيد قطب من مرحلة البيان التي يؤكد فيها أهمية الإيمان بحتمية الصراع وبيان أهميته إلى مرحلة الوعيد الشديد لمن لا يؤمن بهذا الصراع ولا يعمل وفق حتمية الصدام ، فهو يجعل مجرد القعود عن ذلك سببا في لحوق العذاب بالعصبة المؤمنة !

يقول سيد قطب : "وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها- والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية- وضرورة

(١) الظلال ٤/ ٢٢٤٥

مفاصلتها للجاهلية من حولها باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» .. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيدياً وشعورياً ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها- حتى يأذن الله لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها- وإلا أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه، جاهلية وأهل جاهلية. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين، فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز، حق عليها وعيد الله هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد دون أن يدركها فتح الله الموعود! "[1] وهكذا يجد المسلم نفسه مضطرا للصدام مع الآخر لأنه إذا لم يصادم مجتمعه الجاهلي ولا حكامه الطواغيت ولا العالم الذي يموج بأفكار الجاهلية وتصوراتها؛ فإنه وفق دعوى سيد قطب يستحق العذاب المقيم ويفقد فتح الله الموعود!

لقد مهد سيد قطب بلا شك لكل الجماعات والكيانات الإرهابية التي جاءت بعده بتنظيره وتأصيله للعنف والكراهية باسم الدين، وأسس سيد قطب لنظرية فريدة في

(١) الظلال ٢/ ١١٢٥

تحويل الإسلام لكتلة من الكراهية والصراع الدائم مع المجتمعات ومع العالم أجمع!

يقول أحد الباحثين محللا فكر سيد قطب : " أخيرا اكتشف سيد قطب مواهبه الحقيقية موهبته كصائغ للأيديولوجيا بحس تحريضي نفاذ، وهي موهبة تختلف عن موهبة الشاعر الرومانسي أو المفكر أو المصلح الاجتماعي لكنها موهبة تأخذ بطرف من كل هذه المواهب وتصنع منها مزيجا متفجرا قادرا على إلهاب الحماس دون أن ينحدر مع ذلك إلى مستوى الخطب الرنانة فهو مزيج يقوم قبل كل شيء على حجج ومفاهيم لها مظهر مقنع وعلى درجة من العمق تسمح لها بأن تحمل شحنة نفسية عالية "[1]

يقول فضيلة الدكتور أسامة الأزهري متعجبا مما وصل له فكر سيد قطب: " فهل قامت علاقة أمة الإسلام بغيرها من الأمم على الصراع والفناء، إذن فما الفارق بين فكر سيد قطب وبين نظرية صدام الحضارات عند صامويل هانتجتون"[2]

إذن ففكرة حتمية الصدام قد أخذت مع سيد قطب منحى جديدا، فلم يكتف كحسن البنا بمجرد الخطب الحماسية المفتقدة غالبا للأدلة والتي يلهب فيه مشاعر جماهيره وحسب، بل إن سيد قطب راح يصوغ مفاهيم جديدة كـ"المفاصلة " و"الصراع الدائم" و" الحاكمية" مستندا لفهمه السقيم لآيات الكتاب العزيز ، وبدا سيد قطب وكأنه يعد نفسه ومن اتبع منهجه لمعركة فاصلة، وهو ما يعد جنوحا أكثر نحو التطرف

(١) شريف يونس، سيد قطب والأصولية ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب صـ٧٨

(٢) الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين صـ ٦٢ ،د. أسامة السيد الأزهري ط. دار الفقيه

واستعدادا للعنف ما جعله في نهاية المطاف يعلن الحرب على كافة أنظمة العالم حيث رأى ذلك نتيجة حتمية للتمسك بالمنهج الإسلامي فيما يزعم !

ثانيا : نماذج أخرى من مروجي فكرة حتمية الصدام :

كان لنهاية حياة سيد قطب في أغسطس ١٩٦٦ بالطريقة التي حدثت وقعا كبيرا على كافة المنتمين لحركات التطرف والعنف باسم الدين وأخذوا يروجون لإعدامه على أساس أنه انتصار لأفكاره على الطغاة الذين خافوا من أفكاره ، بل منهم من ذهب إلى أن عدالة السماء اقتضت عدم الانتصار في حرب الأيام الستة يونيو ١٩٦٧ م انتقاما لإعدام سيد قطب ![1]

ولذلك لم تتوقف فكرة حتمية الصدام ولم تمت بوفاة سيد قطب، بل لم تزل بعض الجماعات المتطرفة في محاولة إحياء أفكار التطرف ومصادمة المجتمع مرة أخرى.،ومع بداية السبيعينات بدأت التيارات المتطرفة في النشاط، لكن يلاحظ أن معظم هذه التيارات -إن لم يكن كلها – قد ردد معظم أفكار سيد قطب أو طورها شيئا قليلا مستخدمين بعض الاستدلالات الفقهية كما في رسالة الإيمان لصالح سرية أو الفريضة الغائبة لعبد السلام فرج، لكن ولنفس سبب خطأ سيد قطب السابق وهو انتفاء التخصص الشرعي وعد التزام منهج أهل السنة والجماعة في الفهم والسلوك وقعوا جميعا في تكفير المجتمع ومصادمته ومن النماذج على ظهور هذه الأفكار في مرحلة ما بعد سيد قطب :

---

(١) صـ ٣٢١ انظر أعلام الدعوة والحركة الإسلامية

- **تنظيم الفنية العسكرية** :ارتبط هذا التنظيم في الأذهان بحادثة اقتحام الكلية الفنية العسكرية ،وقعت الحادثة يوم ١٨ إبريل ١٩٧٤ م بعد ورود معلومات لصالح سرية زعيم التنظيم في مصر أن الكلية الفنية العسكرية تحتوي على مخازن تضم كميات كبيرة من الأسلحة الحربية المتطورة والمتنوعة ومن الذخيرة الى جانب عدد وفير من الدبابات والصواريخ التي كانت تستخدم في تدريب الطلبة فجاءت رغبة سرية بالاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية للحصول على ما فيه من أسلحة ، ثم الانتقال مع بقية أفراد التنظيم الى مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي لاعتقال رئيس الجمهورية بعد تلقيه معلومات بأن الرئيس يعقد اجتماعاً مع (اللجنة المركزية ، ومن ثم الاستيلاء على زمام الحكم!(١)

لكن محاولة الاقتحام لم تنجح تماما ووقع التنظيم في قبضة الدولة وحوكم أعضاءه جميعا، و بعد ظهور وثائق وتاريخ التنظيم نلمح تأثر مؤسسه صالح سرية بفكر سيد قطب بل والتقاءه ببعض قادة الإخوان المسلمين كالهضيبي وزينب الغزالي مما يلمح لمركزية وحضور فكر الإخوان في فكر التنظيمات المسلحة الأخرى ولو على مستوى الأفكار.

الكتابات الحركية المتطرفة :

ظهر خلال فترة السبيعينات والثمانينات سيل من كتابات وأفكار تتبنى فكرة

(١) انظر بحث الجماعات الإسلامية في مصر في عهد الرئيس محمد أنور السادات ، بشار حسن يوسف مجلة التربية والعلم – المجلد (١٥ العدد :٢ لسنة ٢٠٠٨

الصدام مع السلطة والمجتمع في شكل أكثر عنفا ودموية، ولكن بعضها للأسف لا يزال يصنف على أساس أنه فكر إسلامي أو ما يعرف بكتب الحركات الإسلامية.

فظهر على سبيل المثال كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية الذي يحرف فهم السيرة النبوية ويؤول أحداثها على وفق ما يتصوره من حتمية الصدام مع السلطة والمجتمع ثم مع العالم كله ومن ذلك قول منير الغضبان في هذا الكتاب : " لا بد أن يكون واضحا في ذهننا أن العالم كله ضدنا، والعالم كله يحاربنا، والعالم كله لا يرضى أن تصل الحركة الإسلامية إلى الحكم وهي تريد أن تحكم بشريعة الله. لا بد أن يكون واضحا في ذهننا أن العرب جميعا من قبل، والأمة العربية اليوم من المحيط إلى الخليج – على حد التعبير المعاصر – تعادي هذه الحركة، وتعادينا. لا بد أن يكون الأمر بهذا الوضوح، وهذه الصراحة، وهذه البينة ..... ثم يقول : إنه لا بد أن يعرف كل فرد في القاعدة الصلبة طبيعة هذه المعركة في حرب الأحمر والأسود من الناس، في مفارقة العرب كافة، في نهكة الأموال والأعراض، إنه بعد أن يعرف هذا الأمر. فليبايع أو يرفض "[1]

فالمؤلف يريد أن يستفيد من أحد مواقف السيرة التي تحكي موقفا لسيدنا النبي ﷺ قبل الهجرة وهو بيعة العقبة الثانية التي مهدت للهجرة إلى المدينة وكان مقصد هذه البيعة نصرة رسول الله ﷺ ضد من يريد حربه والقضاء على الإسلام ، ويريد أن يسقط ذلك على واقع المسلمين مع حكامهم ومجتمعاتهم بل وعلى العالم بأسره؛ ذلك أن يتشبع بعقيدة مفادها

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية ١/ ١٧٠ وما بعدها منير محمد الغضبان ط. مكتبة المنار الأردن

أن جماعته -الخبيثة -وحدها هي التي احتكرت الإيمان وتسعى لإقامة دولة الإسلام من جديد.

ولا يكتف المؤلف بهذا الإسقاط النظري دون بيان ما تحقق منه واقعا على يد هؤلاء المتطرفين فيقول في كتاب له آخر عن مراحل الحركة الإسلامية -كما يسميها- : "

(ثم كانت المرحلة الثالثة) من حياة الحركة الإسلامية حيث تمكنت الحركة من الخطوة الحاسمة في حياتها. أن تتجاوز هذه المحن الرهيبة. وتنتفض من تحت المطرقة والموت في بعض الأقطار، لتحمل السلاح في وجه عدوها، لا مدافعة عن نفسها فحسب. بل مهاجمة هذا العدو تقض عليه مضجعه وتحاصره. لتنتزع منه قيادته الجاهلية بقوة السلاح.

وانطلق التيار الإسلامي مستعصيا على الإبادة والإفناء ماضيا في طريقه فإنما هي إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

وقف العالم مبهوتا إمام هذه الانطلاقة الإسلامية الواضحة المتميزة التي وصلت أعلى قمم التميز والمفاصلة. حين أعلنت الحرب على الطاغوت في الأرض لتسود شريعة الله.

وكانت حركة الجهاد الإسلامي في سورية هي التي مثلت هذه الصورة!"[1]

إذن وجد الغضبان سبيلا للاستدلال على إمكانية تنفيذ أفكاره المتطرفة التي يدعي

(١) التحالف السياسي في الإسلام صـ ٤ منير الغضبان ط.مكتبة المنار الأردن

فهمها من أحداث السيرة ، وجد ذلك في الأحداث الدامية في سوريا في مطلع الثمانينات التي راح ضحيتها آلاف الأبرياء في صراع مع السلطة ومع المجتمع ولم يستفد أحد أطراف هذا الصراع بشيء سوى الخراب والدمار وسفك الدماء !(١)

إن هم هؤلاء المتطرفين هو تنفيذ أفكارهم ونشرها حتى لو خالفت أساس الدين وبيناته، ولذلك فما يفعله هذا الرجل في السيرة من تحريف وشطط في الفهم هو ما كان يفعله قبله سيد قطب مع آيات الكتاب العزيز !

ولذلك ومع ازدياد وتيرة التطرف بسبب البعد عن العلماء، واتباع مجموعة من الجهلة والمنحرفين دينيا ظهرت تيارات أكثر تطرفا وعنفا وأكثر تعقيدا من الناحية التنظيمية وأوسع تطبيقا لمفهوم حتمية الصدام .

ثالثا: حتمية الصدام عند الجماعات المسلحة المعاصرة (القاعدة و داعش نموذجا)

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ١٩٨٩م لم يعد لوجود التشكيلات المسلحة التي كانت تعرف بالمجاهدين أي حاجة؛ إذ سرعان ما حصل اقتتال بين هؤلاء وظهرت في إثر ذلك قوة طالبان التي سيطرت على أفغانستان كلها بحلول ١٩٩٦ م ، وفي العام نفسه بدأ ما يعرف بالقاعدة أو قاعدة الجهاد في التشكيل على يد أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وآخرون، وفي عام ١٩٨٩ أصدرت القاعدة ما عرف بوثيقة أو فتوى الجبهة الإسلامية

(١) لمراجعة ما حصل من في سوريا من أحداث دامية أودت بحياة عشرات الآلاف في في الفترة من ١٩٦٤ وحتى ١٩٨٢ انظر تاريخ سوريا المعاصر ،كمال ديب ط. دار النهار

العالمية لجهاد اليهود والصليبين ! تعلن فيه الحرب على أمريكا ومواطنيها ومعاونيها وقد جاء في هذه الوثيقة : " إننا بإذن الله ندعو كل مسلم يؤمن بالله ويرغب في ثوابه إلى امتثال أمر الله بقتل الأمريكان ونهب أموالهم في أي مكان وجدهم فيه، وفي كل وقت أمكنه ذلك، كما ندعو علماء المسلمين وقادتهم وشبابهم وجنودهم إلى شن الغارة على جنود إبليس الأمريكان، ومن تحالف معهم من أعوان الشيطان. وإن يشردوا بهم من خلفهم لعلهم يذكرون" [1]

وطبقت القاعدة مبادئ الصراع كما صاغها سيد قطب من قبل ودعت جميع المسلمين لمحاربة الأمريكيين ونهب أموالهم! من غير تفريق بين المدنيين والمقاتلين؛ في فتوى شاذة لا يوجد لها مثال في تاريخ المسلمين!

ثم كانت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م والتي كانت أكبر تجلي وأوسع تطبيق لمفاهيم الصدام والصراع ،لتبدأ مواجهة عالمية للإرهاب الذي يتخذ من الإسلام ستارا .

وفي الواقع فإن هذا الفكر كان يستند في جملة ما استند إليه إلى ما ألفه الطبيب المصري الذي اعتنق فكر الإرهاب سيد إمام الشريف[2] الذي ألف كتابا سماه "العمدة في إعداد العدة " وملأه بالاستدلالات الباطلة على جواز سفك الدماء داخل المجتمعات

(١) انظر نص الفتوى كاملا كما نشرته جريدة القدس العربي في عددها رقم ٢٧٣٢ بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٩٨م

(٢) سيد إمام الشريف طبيب مصري من مواليد ١٩٥٠ كان من المؤسسين لجماعة الجهاد في مصر ثم سافر لأفغانستان وكان من مراجع إرهابيي القاعدة وألف لهم كتاب العمدة حتى قبض عليه بعد أحداث ٢٠٠١ ليقدم ما أسماه بوثيقة ترشيد الجهاد كنوع تراجع عن بعض أفكاره

المسلمة وغير المسلمة باعتبار أن هذه المجتمعات كافرة لا تحكم بشرع الله ،ويجب قتالها يقول : " إن هذه القوانين الطاغوتية هي كفر أكبر مُخْرِج لمن وَضَعَها ولمن حَكَمَ بها ولمن تَحَاكَم إليها راضيا مختارا من ملة الإسلام، وهي من أنكر المنكرات، وأضعف الإيمان، وهو الإنكار بالقلب يستوجب على المسلمين مقاطعة هذه القوانين ومحاكمها وقضاتها والبراءة منهم، وأن يمتنعوا عن الدراسة في كليات الحقوق التي تدرس القوانين الكافرة، أما الإنكار باللسان فمنه هذا الكلام، وأما الإنكار باليد لهذه القوانين الكافرة ولمن يَعْمل بها ويَحْمِيَها فهو الموضوع الأساسي لهذه الرسالة وهو التدريب العسكري" [1]، فهو مثل سابقيه يرى كفر المجتمعات التي لا تحتكم للشرع ويجعل الواجب حيال ذلك هو إعلان الجهاد!

ويعد كتابه هذه أيضا تطورا نحو مزيد من التطرف والصدام حتى مع أصحاب الفكر المتطرف أنفسهم فهو ينص على ضلال الإخوان المسلمين ومن سلك مسلكهم لأنهم ارتضوا طريق الديمقراطية ! يقول : " ولا يدخل في هذا: الجماعات المتلاعبة بشرع الله كالتي تسعى إلى حكم الإسلام عن طريق الديمقراطية الشركية والبرلمانات العِلمانية وأشباه ذلك مما سقط فيه الكثيرون باسم الدعوة إلى الإسلام فَضَلّوا وأضَلّوا كثيرا من الناس واتبعوا خطوات الشيطان وهو ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠]، فأهدروا طاقات آلاف الشباب بجعلهم مستكينين مسالمين للحكام

(١) العمدة في إعداد العدة، سيد إمام الشريف صـ ١٠٤ نسخة إليكترونية د.ط

الطواغيت خلافا لما يقتضيه الشرع من وجوب قتالهم، فأي ضلال بعد هذا؟ "[1]

فالرجل الذي انطلق من أطروحات سابقة جاء بها حسن البنا وسيد قطب ينتهي لاعتبار فكر هؤلاء الإخوان ضال مضل لأنهم يسعون للحكم بطريق البرلمان.

غير أن هذا الرجل قد زعم رجوعه عن تلك الأفكار بعد أحداث ١١/ سبتمبر / ٢٠٠١ بعد أن قبض عليه في اليمن ،وسلم لمصر ليصدر تراجعا عن بعض أفكاره ،وإن ظل كتابه يتداول ويعتبر مرجعا لجماعات التطرف والإرهاب مما استوجب أن يرد عليه زميله في الإرهاب أيمن الظواهري في رسالة سماها "التبرئة.. تبرئة أمة القلم والسيف من منقصة تهمة الخور والضعف" والحقيقة أن سيد إمام لم يتراجع سوى عن فكرة القتال لأنه لا يرى جدواه الآن ! لكنه لا يزال يعتنق تكفير المجتمعات المسلمة ، وكان يصرح بتكفير الإخواني الدكتور محمد مرسي الرئيس المصري ٢٠١٢ -٢٠١٣ وكل الإخوان أتباعه وكل من اختاره ،كما في العديد من لقاءاته الموثقة على الفضائيات [2]

لكن ورغم فظاعة ما تسببت فيه القاعدة من دمار وتشويه للإسلام لكن هذا لم يتوقف عند ذلك، فلم يمنع ذلك أن يولد من رحم هذه القاعدة مسخ جديد أكثر توحشا وأكثر ضراوة وهو ما عرف بالدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش" التي كانت في البداية انشقاقا عن القاعدة بعد احتدام الصراع بين الظواهري وبعض أتباعه : وتعود جذور هذا الصراع الصراع إلى مطلع عام ٢٠١٣ عندما دخل تنظيم «الدولة الإسلامية

(١) العدة في إعداد العمدة سيد إمام الشريف صـ٩٦

(٢) على سبيل المثال برنامج الحدث بقناة العربية بتاريخ ٦/ ٣/ ٢٠١٣

فى العراق» على خط الثورة السورية، قبل أن يعلن أميره أبو بكر البغدادى ضم الشام إلى العراق فى دولته، ودعوته لأمير «جبهة النصرة» (تنظيم القاعدة- فرع سوريا) أبو محمد الجولانى للانضمام إليه، وأدى توسع «الدولة الإسلامية فى العراق» ليصبح «الدولة الإسلامية فى العراق والشام» إلى إرباك «المشهد الجهادي» فى سوريا، خاصة لدى «جبهة النصرة» التى انتقلت قيادات وعناصر كثيرة من صفوفها إلى صفوف «الدولة الإسلامية فى العراق والشام» (داعش) ومبايعة البغدادي، لكن الجولانى خرج وقتها برسالة أعلن فيها ضمنياً رفضه مبايعة البغدادي، وأعلن ولاء الجبهة لتنظيم القاعدة وزعيمه أيمن الظواهري، وأتبع ذلك دخول الظواهرى إلى خضم صراع أتباعه حيث أعلن فى رسالة صوتية أذيعت فى الأسبوع الأول من نوفمبر ٢٠١٣ أعلن فيها إلغاء ضم الشام إلى «الدولة الإسلامية فى العراق»، وأكد على بقاء «جبهة النصرة» فى سوريا باعتبارها ذراع القاعدة هناك، كان موقف الظواهرى فارقاً ونهاية لمطاف علاقته بتنظيم «الدولة الإسلامية فى العراق والشام»، الذى قرر الخروج على زعامة الظواهرى كلية عندما أعلن أبو بكر البغدادى رفضه إلغاء ضم الشام لـدولة العراق الإسلامية» ليدشن ما اعتبره خبراء «انشقاق الدولة الأسلامية» عن تنظيم القاعدة» الذى بات يمثله فى سوريا «جبهة النصرة "[1]

فجبهة النصرة التي تتبع الظواهري والقاعدة صارت ضد الدولة الإسلامية التابعة للبغدادي الملقب بالخليفة!

إذن ووفق تلك الأخبار المؤكدة عن تلك الانشقاقات المتتالية بين أتباع الفكر

(١) نقلا عن د. محمد السعيد إدريس مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ٤/ ١١ / ٢٠١٤ بعنوان مخطط إسقاط مصر

الواحد، ينقلب السحر على الساحر؛ فالذين صدروا صورة مشوهة عن الإسلام أنه يدعو للصدام وقعوا هم أنفسهم في مصادمة بعضهم لبعض، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

راحت داعش منذ يومها الأول تعمل على صناعة صورة معينة لهذه الدولة تقوم على الترويع والقتل بصور بشعة بالحرق بالنار أو بقطع الرؤوس أو بالإغراق ، بما لم يرتكب بهذه الصورة من قبل ، وقاموا بتوثيق العديد من جرائمهم مثل حرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة في يناير ٢٠١٥ [١]

وقد بدا بهذه الأفعال أن أحد أهداف داعش هو صناعة صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين ؛ حيث تصدر الأفلام عن داعش مصحوبة بترديد آيات القرآن الكريم ،مما يضع هؤلاء تحت دائرة الاتهام أنهم بالأساس مجموعة من المرتزقة التي تقوم بمهمتها في مقابل الحصول على أموال .

ليلتقي في النهاية هذا الضلال المبين المتستر بالدين بأصحاب فكرة صدام الحضارات وكلاهما يعادي الدين والحضارة والإنسانية لصالح أهواء ورؤى شخصية تعصف بالعالم وتقوض السلم المجتمعي لصالح أصحاب المصالح من تجار السلاح ومقاولي إعادة الإعمار .

(١) يراجع الصحف العربية والعالمية عقب الإعلان عن مقتل معاذ الكساسبة الطيار الأردني فبراير ٢٠١٥

الفصل الثالث

فكرة حتمية الصدام بين بينات نصوص الشرع وأوهام المتطرفين

استعرضنا خلال الفصلين السابقين تعريفا بفكرة حتمية الصدام أصولها وأسبابها، وكيف تبناها عدد من المفسدين في الأرض فحولوا حياة الناس ومجتمعاتهم إلى جحيم ، وفي هذا الفصل نستعرض أولا أصول الرؤية الإسلامية في علاقة البشر بعضهم ببعض حتى يتضح تهافت فكرة حتمية الصدام من خلال بينات الشرع ونصوصه ، ثم بعد ذلك نذكر عددا من أوهام المتطرفين وخطأ استدلالهم ببعض نصوص الشرع حيث استخدموها في غير ما نزلت لأجله، ونسبوا ذلك الفهم المغلوط زورا إلى الإسلام؛ فنرد عليهم من خلال

أولا أصول الرؤية الإسلامية في علاقة البشر بعضهم ببعض :

سلك القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة مسلكا واضحا في عَرض علاقة البشر بعضهم البعض سواء كانوا متفقين في الدين أو مختلفين أو حتى في حالة الحرب فقد بنيت كل هذه العلاقات على عدة أمور منها:

١ - **وحدة أصل الجنس البشري** : قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية : " نودوا بعنوان الناس دون

المؤمنين رعيا للمناسبة بين هذا العنوان وبين ما صدر به الغرض من التذكير بأن أصلهم واحد، أي أنهم في الخلقة سواء ليتوسل بذلك إلى أن التفاضل والتفاخر إنما يكون بالفضائل "[1]

فالخطاب القرآني يراعي وحدة الأصل البشري ويبني عليها تكاليف التعايش والتعارف، فلا يربي الإسلام أتباعه على الخوف من الآخر ولا على إضمار الشرور له ولا توقعها من جانبه بل إن أصل المعاملة وغالبها مبناه تبادل المنافع والتعارف .

يقول العلامة أ.د علي جمعة : " التعايش جز لا يتجزأ من هذا الدين، لا يجعلنا في حالة صدام ولا صراع، لأن من سنن الله في كونه الوفاق والصراع أمر طارئ ، نعم هو موجود لكنه طارئ، ومن هنا وبهذه العقلية ندعو إلى التعايش، بل ويؤثر هذا التعايش في معاملتنا "[2]

إذن التعايش والتعارف الذي أمرنا الله به هو الأصل بين البشر، وأما حالة الصدام فهي طارئة يتسبب فيها أهواء ورعونات بعض البشر.

٢ – وسطية الأمة الإسلامية بين الأمم :

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ **[البقرة :١٤٣].**

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣ / ٥١٧ ط.الدار التونسية للنشر

(٢) وقال الإمام :أ.د علي جمعة صـ٢٩٢ ط. الوابل الصيب

فهذه الآية من الآيات التي تبين دور الأمة الإسلامية وهو أنها ليس دورها هو التعالي على الخلق ولا المصادمة لهم بل إنها لا تستحق مكانتها عند الله إلا إذا قامت بدورها افي بيان الحق ودعوة الخلق إلى الله يقول صاحب تفسير المنار نقلا عن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله:

"وهذا أيضا حجة على كثير من اللابسين لباس الإسلام وهم من هذا الصنف، يعتقدون كمال سلفهم، ولا يقتدون بهم، وإنما يطمعون في سعادة الدنيا والآخرة بانتسابهم إلى أولئك السلف العظام، ولكونهم من أمة النبي – عليه الصلاة والسلام – وهي خير الأمم بشهادة الله في القدم، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال في العقائد والأخلاق والأعمال، وتسعى في إصلاح البشر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1]

فالدين الإسلامي يحث أتباعه على القيادة المستحقة لا على الكبر والزهو ، وهذا مما يقضي على فكرة الاستعلاء الذي يولد الصدام بين البشر.

٣ – استثمار المشترك بين البشر :

لا شك أن هناك كثيرا من الاختلافات بين البشر ، لكن الانطلاق في التعامل من هذه الاختلافات فقط يحول دون تمام مقصد الله بعمارة الدنيا ولذلك طلب منا الإسلام أن نبحث عن المشترك وأن نستثمره لصالح الإنسانية جميعا، فمثلا بيننا وبين أهل الكتاب

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ١٣٥ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب

اشتراك في أمور كثيرة ، لو أننا استثمرنا هذه المشتركات للتعايش .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[آل عمران : ٦٤]

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله في تفسير هذه الآية : "أننا نحن وإياكم على اعتقاد أن العالم من صنع إله واحد، والتصرف فيه لإله واحد، وهو خالقه ومدبره وهو الذي يعرفنا على ألسنة أنبيائه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه. فتعالوا بنا نتفق على إقامة هذه الأصول المتفق عليها ورفض الشبهات التي تعرض لها "[1]

فالمشترك بين الأديان يعد سببا للتعاون لا للتصادم والتدابر، وفي الحقيقة تعد مثل هذه الآية مدعاة للفخر بهذا الدين الذي دعا للتعايش وللتعاون بين أهل الأديان قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، بينما كان العالم وقتها يموج بالصراعات المذهبية والسياسية.

٤ – تقديم السلم على الحرب :

اعتمد الإسلام السلم كمبدأ للتعاون بين البشر وأوجب على المسلمين إيقاف الحرب مع المحارب لهم متى مال للسلم وطلبه قال تعالى : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال: ٦١] .

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسير هذه الآية : " فأمر الله المسلمين

(١) تفسير المنار ٣/ ٢٦٨

بأن لا يأنفوا من السِلم وأن يوافقوا من سأله منهم "[1]

فليست الحرب مقصدا في الإسلام ولا غاية وبالتالي فالصدام عارض يزول بالرغبة في السلام ولو من العدو المحارب، كما تشير هذه الآية الكريمة .

ومن هنا فإن المتطرفين الذين تبنوا فكرة حتمية الصدام قد خالفوا كل هذه النصوص التي تحض على التعايش والسلم والبحث عن المشترك وتعظيم وحدة الإنسانية ؛ ورغم ذلك كله إلا أنهم لم يكتفوا بتلك الأخطاء العظام حتى راحوا يضيفون إليها أخطاء أخرى أخطر وأشد وهي تأويل آيات الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقرر في أفهامهم المعوجة وأهوائهم السقيمة و سنعرض بعض هذه النماذج بيانا لما وقع فيه هؤلاء من نسبة أفكار حتمية الصدام المتطرفة إلى الدين .

٥ – رحمة للعالمين :

علمنا رسول الله ﷺ أن نكون رحماء بالخلق مؤمنهم وكافرهم طالما لم يعتدِ على ديننا ولا على أوطاننا، فلذلك صاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الخلق العالي في صورة أمر واضح غير مقيد بزمان ولا مكان، فقال ﷺ : «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» "[2] فهذا الحديث يوضح أن أصل علاقة المسلم لمن حوله مسلما كان أو غير مسلم بل إنسانا كان أوغير إنسان هي الرحمة بدليل عموم

(١) تفسير الطاهر بن عاشور ١٠ / ٥٨

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ٤ / ٣٢٣ ط.مصطفى البابي الحلبي

قوله ﷺ "من في الأرض" ، وليس هذا إلا تأكيدا وتطبيقا لوصف الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧] .

فأين هذه الرحمة من أفعال أولئك المتطرفين المفسدين في الأرض، فالرحمة أحد أهم ركائز الدين القويم في دعوة الخلق إلى الله ،فالرحمة والعفو يقدم على العقوبة في كثير من أحكام الشرع الشريف الدنيوية ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن العقوبات والحدود فقال : " ادرؤوا الحدود ما استطعتم "[٣] فليس الدين إلا مظهرا من مظاهر الرحمة الربانية في الدنيا قبل أن يكون سبيلا إلى رحمة الآخرة .

ثانيا : بعض النماذج لخطأ المتطرفين في فهم النصوص الشرعية للاستدلال على فكرة حتمية الصدام :

انتهج المتطرفون مع كتاب الله نهجا معوجا في الفهم منذ الخوارج الأُوّل؛ وذلك أنهم راحوا يفهمون كتاب الله سبحانه وتعالى بلا ارتباط بأي منهج علمي منضبط، بل راحوا يفهمون كتاب الله وفق أهوائهم وانطباعاتهم، وقد التفت الصحابة رضي الله عنهم لهذه الأخطاء، وردوا عليهم لينبهونهم على خطئهم؛ ومن ذلك ما دونته كتب التاريخ الإسلامي من قولهم بتكفير الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حينما أقدم على مسألة التحكيم مستندين إلى فهمهم الأعوج لقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[يوسف : ٤٠] فرد عليهم الإمام علي بن أبي طالب في فهمهم هذا قائلا : " كلمة

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى باب ما جاء في درء الحدود بالشبهات ٨/ ٤١٣ ط.دار الكتب العلمية

حق أريد بها باطل "[1] فصارت هذه الكلمة مفتاحا لفهم منهج هؤلاء الخوارج وكيفية التعامل معه ، وعلى ذلك فسنعرض لبعض هذه الأفهام المغلوطة ونبين ما جنحت فيه عن الصواب .

١ – الاستدلال بقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠] على صدام العالم كله!

يقول سيد قطب في كتابه ظلال القرآن : " إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان» .. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: إن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها.. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه.. إن الإسلام ليس نظاماً لاهوتياً يتحقق بمجرد

(١) رواه مسلم في صحيحه باب التحريض على قتل الخوارج ٢/ ٧٤٩ ط.دار إحياء التراث العربي

استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيماً للشعائر، ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرىٰ تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوىٰ مادية. فلا مفر للإسلام- لإقرار منهجه الرباني- من تحطيم تلك القوىٰ المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرىٰ، وتقاوم المنهج الرباني"[1].

الرد :

لا يخفىٰ ما في كلام سيد قطب من التعسف في فهم الآية التي لا تذكر إلا حالة الاستعداد للعدو وهو الذي يسعىٰ لمحاربة المسلمين أما من سالم المسلمين فلا مجال للحديث عنه هنا ولو كان مخالفا لهم في الدين والمنهج ، بينما يريد سيد قطب بهذه الآية أن يسعىٰ لمحاربة كل دول العالم لمجرد مخالفتهم لما يظنه منهج الإسلام!

٢ – الاستدلال بقول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٣] علىٰ مصادمة الحكام الظالمين وقتالهم !

فكما جاء في أحد مذكرات أحد أفراد الإخوان المسلمين يحكي عن موقف قتل القاضي أحمد الخازندار رحمه الله من قبل التنظيم الخاص في مارس ١٩٤٨ واستدلال القاتل بهذه الآية قال : "دخل الأستاذ (البنا) وهو متجهم، وجلس غاضبا ثم سأل عبد

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٤٣

الرحمن السندي قائلا : أليست عندك تعليمات بألا تفعل شيئا إلا بإذن صريح مني ، قال بلى ، قال كيف تسنى لك أن تفعل هذه الفعلة بغير إذن وبغير عرض على مجلس إدارة النظام ؟ فقال عبد الرحمن لقد طلبت الإذن من فضيلتكم بذلك، قال الإمام : كيف؟ قال عبد الرحمن لقد كتبت إلى فضيلتكم أقول ما رأيكم دام فضلك في حاكم ظالم يحكم بغير ما أنزل الله ويوقع الأذى بالمسلمين ويمالئ الكفار والمشركين والمجرمين؟ فقلتم فضيلتكم : إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو أن ينفوا من الأرض ... فاعتبرت ذلك إذنا !! "[1]

الرد :

بالتأكيد هذا تحريف لمعنى الآية فالسؤال مِن هذا القاتل (عبد الرحمن السندي) كان عن الحاكم الظالم الذي حاد عن الأحكام الشرعية – في زعمه – بينما الآية كما هي عند جميع المفسرين المعتمد قولهم هي في طائفة المحاربين الذين يقطعون الطريق ويقتلون أو يسرقون أو يروعون الآمنين قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الاية الكريمة : " هذه الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين وهذا قول أكثر الفقهاء" أ.هـ[2] وبالتالي فليس لجواب البنا أي مدخل من اللغة ولا من كلام المفسرين في هذه الآية، سوى أنه كان يجيب

(١) مع الإمام حسن البنا لمحمود عساف (مستشار التنظيم الخاص) صـ١٤٧ ١٩٩٣ م/ مكتبة عين شمس .

(٢) مفاتيح الغيب للإمام الرازي ١١ / ٣٤٦

بحسب انطباعه عن الآية![1]

٣ – تحريف المقصود بآيات الجهاد وحملها على قتال المسلمين بعضهم لبعض كقول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة : ٣٦] . وقول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

يقول أحد زعماء الفكر المتطرف : " ويتضح من هذا أن الجهاد يكاد أن يكون فرض عين على جميع المسلمين الآن، خاصة الموضع الثاني (إذا نزل الكفار ببلد) فمعظم بلدان المسلمين الآن يحكمها ويتسلط عليها الكفار! إما مستعمر أجنبي كافر، وإما حكومة محلية كافرة!!!، وإذا تعين الجهاد فإن تركه يكون من الكبائر للوعيد الوارد فيه، بل من السبع الموبقات بنص حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هنا يتبين وجوب التدريب العسكري لكونه من الإعداد للجهاد الذي يمكن أن يتعين على كل مسلم في أي وقت، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" [2]

الرد :

لا شك أن هذا تلاعب بمعاني آيات الله تعالى؛ فهو يجعل الآيات الواردة في قتال

(١) من العجيب أن البنا اعتبر هذا القاتل قد قتل بحسن نية فلم يسلمه للعدالة ولم يدفع حتى دية المقتول غدرا اكتفاء بتعويض الحكومة وهو ما خالف فيه الأحكام الشرعية مخالفة صريحة !! انظر محمود عساف / مع الإمام البنا صـ١٤٨

(٢) العمدة في إعداد العدة صـ٢٤ سيد إمام الشريف

المشركين المعتدين تنزل على المسلمين ! وصدق في هؤلاء ما صح عن الصحابي عبد الله بن عمر في وصف الخوارج وكان يراهم شرار خلق الله، وقال: «إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين»[1]

ولا شك أن ميزان التعامل مع آيات الجهاد والقتال يكون وفق قواعد علم أصول الفقه وأصول التفسير التي تقتضي حمل آيات القتال بعضها على بعض حتى يتسنى لنا فهم الأحكام كاملة غير منقوصة ،ولذلك فقد قيد الله الآيات السابقة بقوله في آية سورة البقرة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

فقيد المبادأة بالقتال بالاعتداء من الآخرين فتفسير الآية كما عند الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير قال : " ولا تعتدوا أي لا تبتدؤوا بالقتال وقوله: إن الله لا يحب المعتدين تحذير من الاعتداء وذلك مسالمة للعدو واستبقاء لهم وإمهال حتى يجيئوا مؤمنين ! "[2]

وما ذكرناه في تفسير هذه الآية هو التطبيق العملي الذي درج عليه المسلمون أنهم لم يبادؤوا أحدا بالحرب لم يحاربهم، ولم يقوموا بإكراه أحد على الدخول في دينهم حتى من الوثنيين والملاحدة فلقد فتح المسلمون الهند وحكموها نحو خمسمائة سنة وظلوا أقلية

(١) صحيح البخاري باب قتل الخوارج والملحدين ٩/ ١٦ ط.دار طوق النجاة

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٢٠١

فيها ولم يجبروا أحدا على الدخول في دينهم .

وهكذا اتضح من خلال هذه النماذج التي سقناها مدى تخبط المتطرفين وبعدهم عن جادة الشرع وهدايته في الفهم والتطبيق ، مما يستوجب التحذير من أوهامهم وبيان تهافت استدلالاتهم .

الفصل الرابع

كيفية مواجهة فكر حتمية الصدام وعلاج آثاره

من المهم كي يتم محاصرة وعلاج آثار هذا الفكر المتطرف في البداية الوقوف على الأسباب التي نتج عنها هذا الفكر ،وقد مضى في أول عن البحث الكلام عن الأسباب الداعية لتبني هذا الفكر ،وذلك لأن هناك من الإجراءات التي يمكن اتخاذها حيال هذه الأسباب؛ وذلك على مستويين :

الأول المستوى الوقائي:

فقبل أن تقع مجتمعاتنا -لا قدر الله- في شراك دعاة حتمية الصدام كيف نقي مجتمعاتنا من ذلك :

الثاني : المستوى العلاجي :

حيث يحتاج بعض الأفراد وبعض المجتمعات إلى برامج لمعالجة آثار انتشار هذه الأفكار ورفع ما تسببت فيه من حروب وآلام .

المستوى الأول المستوى الوقائي :

الوقاية خير من العلاج كما يقال ولذلك فإنه يجب على الدول والمجتمعات الواعية أن تسرع لوقاية أبنائها من خطر الوقوع والاستسلام لدعاة حتمية الصدام وذلك عن طريق اتخاذ عدد من الخطوات المهمة ومنها :

١ – نشر الوعي بالقيم الإنسانية والدينية :

لتجنب اعتناق فكرة حتمية الصدام والإيمان بدوام الصراع بين البشر،يكون من المهم نشر الوعي بقيم مثل السلام أو الجوار أو التعايش ، فمثل هذه القيم تجعل هناك دائما مقاومة لتلك الأفكار التي تنطلق من النماذج المعرفية المادية الخالية من الرؤية الإنسانية أو المعاني الرحيمية التي تمتلأ بها الشرائع التي جاءت من عند الله جل في علاه؛ ولذلك فمن المناسب أن تكون هناك برامج توعية للنشء بأهم القيم الإنسانية المشتركة التي تدعو لها كافة الأعراف البشرية وجميع الديانات كقيم الرحمة والتعايش والجوار والسلام؛ مما يكون بمنزلة التحصين ضد هذا الفكر المتطرف ويجنبنا في المستقبل علاج آثاره.

ولا يجدي ذلك ويؤتي ثماره ذلك حتىٰ يكون في صورة مشروع قومي تتبناه الدول يطبق من خلال ما يلي :

١ – مناهج التعليم خاصة قبل الجامعي .

٢ – خطة إعلامية لنشر هذه القيم والتحذير من خطورة آثار الصدام المجتمعي .

٣ – سرعة التعامل مع النزاعات والمشكلات الاجتماعية لحلها والتخفيف من آثارها؛ حيث تعدهذه النزاعات بيئة خصبة يستغلها دعاة الصدام بين البشر.

٢ – تفكيك الأفكار المتطرفة التي ينطلق منها فكر حتمية الصدام :

قد يجدي نشر الوعي في مرحلة الذين لم يتأثروا بعد بالفكر المتطرف، لكن هذا ليس كافيا خاصة مع انتشار المواقع والقنوا ت الفضائية التي تروج لهذه الأفكار المتطرفة ، مما يحتاج معه إلى عمل مواجه يستبق انتشار هذه الأفكار؛ وذلك عن تفكيكها :

ويمكن أن يكون ذلك عن طريق ما يلي :

١ – عمل برامج حوارية تلفزيونية مع بعض التاركين للفكر المتطرف ممن صدقت توبتهم وعلموا خطأ ما كانوا عليه من البعد عن الصواب.

٢ – رصد أهم منطلقات هذه الأفكار والرد عليها في صورة كتب أو رسائل قصيرة أو أفلام تبث عبر الشبكة الالكترونية العالمية وهناك تجارب جيدة في هذا المجال تقوم بدور مهم في هذا المضمار.[1]

المستوى الثاني المستوى العلاجي :

عندما تقع المشكلة فلابد من التحرك لحلها، ولذلك فالعلاج يتأكد عندما يقع بعض أفراد المجتمع في وهم هذه الأفكار المتطرفة ويحتاج العلاج أيضا إلى عدد من الخطوات المهمة من أهمها :

(١) فقد صدرسنة ٢٠١٥ كتاب الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين لشيخنا أ.د أسامة السيد حيث فند أطروحة سيد قطب في الحاكمية وفي سنة ٢٠١٦ صدرت موسوعة الرد على خوارج العصر تحت إشراف شيخنا العلامة أ.د علي جمعة في خمسة مجلدات ، ودشنت سنة ٢٠١٦ شبكة سند وهي في الأصل عبارة عن مبادرة تتكون من عدة مشاريع مرتبطة، لمواجهة الفكر المتطرف وأنتجت عددا من الأفلام القصيرة لتفكيك الفكر المتطرف وبيان زيفه.

١ – تحديد درجة ونوع التطرف لمواجهته بما يناسبه :

فليس تأثر الناس بهذه الأفكار يأخذ نوعا واحدا أو يكون على درجة واحدة ، فالذي يتبنى الأفكار فقط أخطر منه من ينشرها بين الناس وأخطر منهما معا من يعمل على تطبيقها من خلال العنف ، لذلك فعلى الجهات المعنية بالتعامل مع مشكلة التطرف أن تواجه كل حالة بما يناسبها وفق معطيات الواقع وما تقرره القواعد العلمية في حل هذه المشكلات.

وهذا لا يتأتى إلا بعمل مراكز بحثية من شأنها أن تقف بالرصد والتحليل لهذه الحالات لتقدم إلى لأصحاب القرار ما يعينهم على اتخاذ الإجراءات المناسبة .

٢– عمل البرامج التأهيلية المناسبة لمساعدة أصحاب الفكر المتطرف على التخلص منه:

قد يقع الإنسان في الفكر المتطرف ويسبب له مشكلة نفسية أو فكرية لطول اقتناعه به ، ويجد في نفسه الكثير من الأسئلة والشبهات العالقة بذهنه، مما يحتاج معه إلى من يحاوره من المتخصصين ليزيلوا شبهاتهم ويردوهم لفطرتهم السليمة مرة أخرى؛ ولذلك فعمل هذه البرامج التأهيلية هو من المهمات في مسألة علاج هذه الفكر المتطرف؛ ولذلك فيلزم أن تصمم هذه البرامج من واقع ما يثيره المتطرفون من شبهات ويرد عليها بشكل علمي هادئ يساعد على الاقتناع والاتزان النفسي .

٢ – عمل برامج لمعالجة آثار النزاعات الطائفية والعرقية :

قد يتطور الأمر ويتفاقم عند كثيرين من المتبنيين لفكر حتمية الصدام، حيث يتعرضون لتجارب سيئة نتيجة لوقوعهم تحت تعذيب أو اضطهاد أو تهجير أو نحو ذلك من التجارب الإنسانية المريرة التي يمر بها الكثير من سكان العالم في هذه الآونة خاصة في البلاد العربية والإسلامية ، والمشكلة في هذه الأحداث المؤسفة من النزاعات والحروب وسياسات التهجير أو التعذيب ، أن آثارها تبقى على فترات طويلة وربما أورث الإنسان أولاده ومن حوله هذه الآثار من الكراهية والحقد والرغبة في الانتقام ومزيد من اليقين في وجوب وحتمية الصدام!

وبالتالي فمعالجة آثار ذلك تستوجب تضافر جهود الدول والمنظمات الأهلية والدولية للقيام ببرامج الدعم النفسي ومعالجة آثار النزاعات والحروب ، ومن أفضل الآليات التي تقدم في هذه البرامج آلية التسامح؛ وقد عرف العلماء التسامح" بأنه الانصراف الذهني عن الأفكار السلبية كالغضب والغيظ والاستياء والرغبة في الثأر وإيقاع الأذي بالمسيء"[١]، وفي خلال دراسات وأبحاث أجريت على عدد من الذين تعرضوا للإيذاء من الآخرين وقد ظهرت من خلال هذه الدراسة أعراض سلبية عديدة لدي الأفراد الذين اتسمت استجابتهم بعدم التسامح منها مرورهم بمشكلات

---

(١) نقلا عن. د.عبير محمد أنور– الأستاذ بقسم علم النفس جامعة القاهرة مقال بالأهرام العدد٤٦٤٣٥ بعنوان التسامح وسيلتك للصحة النفسية والجسدية

وأمراض نفسية عديدة أبرزها الإصابة بحالات من الاكتئاب ووجود قصور في الكفاءة الاجتماعية وفشل بالغ في مواجهة توقعات الآخرين كما ظهر عليهم أعراض الإصابة بالعديد من الأمراض الجسدية، وعلي العكس من ذلك فقد لوحظ أن الذين اتسمت إجابتهم بالتسامح يتمتعون بالصحة النفسية والجسمية وقد فسر الباحثون ذلك بأن التسامح يحافظ علي صحة الإنسان وقد ارتبط التسامح بالصحة العامة بشكل عام[1] ، وبالتالي فالآثار النفسية التي تنتج عن النزاعات والحروب والصراعات العرقية والطائفية مما تزكيه الأفكار المتطرفة كحتمية الصدام وغيرها تحتاج إلى برامج للدعم والعلاج النفسي وذلك للتخلص من الآثار العنيفة لهذه النزاعات .

٣ – سن التشريعات الحاسمة لتقليل انتشار أفكار التطرف :

لا يكفي فقط عمل البرامج العلاجية للفكر المتطرف دون تجفيف منابعه عن طريق عمل تشريعات رادعة تقف ضد مروجي هذه الأفكار وتقضي على آثارها، ولا يكفي أيضا أن توضع التشريعات التي تجرم العنف الناتج عن تبني فكرة حتمية الصدام من جرائم القتل والاعتداء والترويع وتعتبر ذلك إرهابا ؛مهما بلغت هذه العقوبات لا تزال هناك جرائم تسبق ذلك العنف ينبغي مواجهتها؛ لذلك فإن بث أفكار الكراهية والاستعلاء العرقي والطائفي لا بد من دخولها ضمن الجرائم الكبرى التي لا بد من مواجهتها على مستوى القانون ،لذلك فينبغي أن تنص تلك التشريعات على عقوبات

(١) المرجع السابق

رادعة لكل من ينشر تلك الأفكار خصوصا في وسئل الإعلام أو من يقوم بالتدريس والتعليم في مراحل التعاليم المختلفة .

الخاتمة ونتائج البحث :

بعد استعراض مفهوم حتمية الصدام وتعرفنا على أشكاله وأسبابه ، وجذوره التاريخية عبر الفكر الإنساني بشكل عام؛ فإن هناك عدد من النتائج التي يمكن أن نخلص بها من خلال هذا البحث :

١- فكرة حتمية الصدام تمثل خروجا على مراد الله من خلقه حيث يريد الله عمارة الأرض ومآل هذه الفكرة هو الخراب والدمار وهذه الفكرة قديمة بقدم الوجود الإنساني وقد انتقلت الفكرة عبر التاريخ بين العديد من التيارات والجماعات لتمثل تحديا على الإنسانية وأصحاب الديانات للقيام بواجب الوقوف ضد هذا الفكر المنحرف .

٢ - تتعدد أسباب تبني فكرة حتمية الصدام غير أن أبرزها هو حب الاستعلاء والكراهية وعدم قبول الآخر.

٣ - يعد الخوارج هم أول فرقة في التاريخ الإسلامي تتبنى فكرة حتمية الصدام مما ترتب عليه سفك الدماء المعصومة وتأخير مسيرة الحضارة الإسلامية سنين عددا.

٤ - ضلوع جماعة الإخوان منذ مؤسسها الأول في تبني ونشر فكرة حتمية الصدام مما سوغ اعتبارهم نموذجا لنشر وتطبيق فكرة حتمية الصدام .

٥- خطورة ما كتبه حسن البنا ثم سيد قطب من أفكار تدعو إلى تكفير المجتمع وصدام المجتمعات وحرب المسلمين للعالم بأسره، كان من أكبر تجليات هذا الفكر ما

حصل على يد القاعدة وداعش بعد ذلك من جرائم ضد الإنسانية ومن تشوية للدين .

٦ – نصوص الشرع الشريف تحث على تبني وحدة الجنس البشري وأن الرحمة أساس من أسس التعامل بين البشر وأن الحرب حالة طارئة لا ينبغي أن تستمر.

٧ – تبني الجماعات المتطرفة لتفسيرات مغلوطة لنصوص الشرع الحنيف مما يحتاج إلى بيان وإيضاح حتى لا يتشكك الناس في دينهم .

٨ – ضرورة مواجهة فكرة حتمية الصدام على المستوى الوقائي ثم على المستوى العلاجي عن طريق نشر الوعي وإنشاء المراكز البحثية والبرامج العلاجية والتشريعات القانونية.

وفي الختام نسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية وأن يقينا سبل الغواية وأن يكتب لمجتمعاتنا النجاة من هذه الأفكار وأن يقيمنا في خدمة ديننا ومجتمعاتنا والله ولي التوفيق .

المراجع

١ – المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ط.دار الكتب العلمية

٢ – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد لابن عبد البر الأندلسي / ط.وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

٣ – السنن الكبرى للإمام البيهقي / ط.دار الكتب العلمية

٤ – وقال الإمام أ.د علي جمعة صـ ٢٠٥ ط.الوابل الصيب

٥ – هكذا تكلم زردادشت صـ١١٢ فردريك نيتشه ترجمة فليكس فارس ط.دار هنداوي

٦ – موسوعة اليهود واليهودية د/ عبد الوهاب المسيري ط.دار الشروق

٧ – أ.د أحمد الطيب مفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والماركسية ط.دار الطباعة المحمدية

٨ – أصول الفلسفة الماركسية جورج بوليترز وجي بيس، موريس كافين تعريب شعبان بركات منشورات المكتبة العصرية

٩ – مواجهة تخريب العمران: د. فوزي فهمي، جريدة الأهرام ٤٣٩٠٤ / السنة ١٣١–العدد١٩ فبراير ٢٠٠٧

١٠ – نهاية التاريخ فرانسيس فوكوياما ترجمة حسين أحمد أمين نشر مركز الأهرام

للنشر والترجمة

١١ – الملل والنحل للشهرستاني ط. مؤسسة الحلبي

١٢ – الفصل في الملل والنحل لابن حزم الأندلسي ط. الخانجي

١٣ – مذكرات الدعوة والداعية :حسن البنا / ط. مكتبة آفاق

١٤ – حقيقة التنظيم الخاص ،محمود الصباغ ط.دار الاعتصام

١٥ – مجموعة رسائل البنا / ط.دار التوزيع والنشر

١٦ – أزمة التنظيمات الإسلامية (الإخوان نموذجا) د.جاسم سلطان/ ط.الشبكة العربية للأبحاث والنشر

١٧ – في ظلال القرآن سيد قطب / ط.دار الشروق

١٨ – شريف يونس، سيد قطب والأصولية / ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩ – الحق المبين في الرد على من تلاعب بالدين ،د. أسامة السيد الأزهري / ط. دار الفقيه

٢٠ – أعلام الدعوة والحركة الإسلامية عبد الله العقيل ط.دار البشير

٢١ – الجماعات الإسلامية في مصر في عهد الرئيس محمد أنور السادات ، بشار حسن يوسف مجلة التربية والعلم – المجلد (١٥ العدد :٢ لسنة ٢٠٠٨

22 - المنهج الحركي للسيرة النبوية منير محمد الغضبان / ط. مكتبة المنار الأردن

23 – التحالف السياسي في الإسلام منير الغضبان/ ط.مكتبة المنار الأردن

24 – تاريخ سوريا المعاصر ،كمال ديب / ط. دار النهار

25 – نشرته جريدة القدس العربي في عددها رقم 2732 بتاريخ 23 فبراير 1998م

26 – العمدة في إعداد العدة، سيد إمام الشريف صـ104 نسخة إليكترونية د.ط

27 – مخطط إسقاط مصر ، د. محمد السعيد إدريس مقال بجريدة الأهرام بتاريخ 4/ 11 /2014

28 – صحيح مسلم ط.دار إحياء التراث العربي

29 – مع الإمام حسن البنا لـمحمود عساف / مكتبة عين شمس

30 – مفاتيح الغيب للإمام الرازي / دار إحياء التراث العربي

31 – صحيح البخاري / ط.دار طوق النجاة

32 – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور / ط.الدار التونسية للنشر

33 – تفسير المنار، محمد رشيد رضا / ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب

34 – سنن الترمذي ط.مصطفى البابي الحلبي

حتمية الصدام :

قال صلى الله عليه وسلم : " إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردئا للإسلام غيره إلى ما شاء الله فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك " (رواه بن حِبان) .

يعد الخوارج هم أول فرقة في التاريخ الإسلامي تبنت فكرة حتمية الصدام مما ترتب عليه سفك الدماء المعصومة وتأخير مسيرة الحضارة الإسلامية.

وفي الوقت الراهن أخذت جماعة الإخوان على عاتقها نشر فكرة حتمية الصدام بين الحق والباطل، وجعلت هذا الأمر من المنطلقات الرئيسة في تكوين الفكر لدى الأفراد في المجتمع الإسلامي.

ويعد ما كتبه حسن البنا ثم سيد قطب من أفكار داعية إلى تكفير المجتمعات، وضرورة صدام المجتمعات، وحرب المسلمين للعالم بأسره، المحرك الرئيس فيما يحصل اليوم على يد القاعدة وداعش من جرائم ضد الإنسانية ومن تشوية للدين .

في هذا البحث نتناول فكرة حتمية الصدام لدى الجماعات المتطرفة، وكونها تتعارض مع ما جاءت به الشرائع السماوية والدين الإسلامي بالخصوص من هداية ورحمة ربانية وحسن تعايش مع الجميع.

www.sanad.network
facebook.com/sanadnetwork
twitter: @sanadnetwork
youtube.com/sanadnetwork
instagram.com/sanadnetwork

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org
مبادرة سند هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH PUBLICATION & DISTRIBUTION